

# محمد علي دبوز

## والمنهج الإسلامي لكتابة التاريخ

تأليف

د. محمد ناصر

نشر مكتبة الشيخ محمد علي دبوز

يات (غرداية)

205

مكتبة
محمد علي دبوز
بريان

ملك جميع
ولي إسحاق إبراهيم الطيش
لخدمة الشرات

# محمد علي دبوز

## والمنهج الإسلامي لكتابة التاريخ

تأليف
د. محمد ناصر

نشر مكتبة الشيخ محمد علي دبوز
بريان (غرداية)

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طبع « دار البعث » قسنطينة ـ الجزائر

رقم الايداع القانونى : 94/4/47056 ـ و٠ قسنطينة



الشيخ محمد على دبوز رحمه الله

أخذت الصورة يوم 20 مارس 1979 . تصوير بجلود ابراهيم .

بسم الله الرحمٰن الرحيم

# مقدمة

لا أدّعي بأن هذه الصفحات القليلة دراسة جادة عن أستاذنا الشيخ محمد علي دبوز (رحمه الله) لأنها في الحقيقة عبارة عن مقالين كنت نشرتهما في الصحافة الوطنية تعريفا بجهوده في كتابة تاريخ المغرب الكبير . وكنت أمني النفس أن تكون فصلا واحدا من فصول عديدة من كتاب يكون أشمل وأعمق وأكمل . ولكن تراكم الأعمال وتعدد الموضوعات الملحة على الكتابة هنا وهناك حالت كلها دون تحقيق هذه الأمنية .

ولعل من توفيق الله أن يتزامن هذا الكتاب مع الإستعداد للإحتفال بمرور سبعين سنة على تأسيس معهد الحياة وبمرور ستين سنة على نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وللذكريين إرتباط وثيق بتاريخ أستاذنا وجهوده المضنية في سبيل الإشادة والتعريف بالمؤسسة مشاركة وتأليفا . فقد كان ركنا عتيدا في معهد الحياة ، كما كان كاتبا لامعا في جريدة البصائر ، ويكفيه فخرًا أن يكون أول جزائري يعرف برجالات جمعية العلماء ، وجهودهم الإصلاحية بعد

الإستقلال ، تشهد له بذلك تآليفه القيمة التي ستظل مرجعا أساسيا للباحثين في هذا المجال .

ان شخصية الشيخ محمد علي دبوز ستظل مرتبطة بمعهد الحياة هذه المؤسسة التعليمية الماجدة التي تعتبر أول ثانوية حديثة حرة في الجزائر كانت وما تزال تخرج كل سنة أفواجا من المعلمين والدعاة والمصلحين .

ولا أحسب أحدا ممن يعرف تاريخ هذه المؤسسة لا يتذكر الجهود العظيمة التي بذلها الشيخ من أجل الرفع من مستواها برامج ومناهج تربية وتعليما ، تدبيرا وتسييرا ، ولا أحد ينسى ما قام به من سعي حثيث دؤوب للتعريف بمعهد الحياة داخل الوطن وخارجه ، كان طموحه وحبه للمعهد يدفعانه إلى أن يقف المعهد بشهادته في صف واحد مع الثانويات الأصيلة في الوطن العربي ، فكان سعيه العملي لتحقيق ذلك الإعتراف من الجامعات المصرية سنة 1953 وعندما حالت الحرب التحريرية دون اتمام السعي أعاد الكرة بعد الإستقلال مباشرة . وما زلت أتذكر جيدا كيف دفعني لأن أقوم بمغامرة إتمام الدراسة الجامعية بالقاهرة دون شهادة معترف بها أو منحة دراسية تضمن العيش البسيط ، وحل بالقاهرة في شهر سبتمبر من سنة 1962 واستأنف السعي من أجل أن تعترف الجامعات المصرية بشهادة معهد الحياة وبدأت مرحلة من العمل الجاد ما بين سبتمبر 1962 حتى 15 جانفي 1963 التاريخ الذي صدر فيه الإعتراف بشهادة معهد الحياة من طرف المجلس الأعلى للجامعات المصرية ، وكان ذلك فتحا مبينا لم نكن نحلم به أو نتطلع إليه وكان لي الشرف أن أكون أول من يلتحق بتلك الشهادة بجامعة القاهرة .

وما زلت أتذكر جيدا كيف كان حريصا على التعريف بالمعهد كلما جمعه برجالات مصر مجلس وهم ما كانوا يصدقون أن يكون في الجزائر معهد على النحو الذي يصفه به الشيخ محمد علي وعهدهم بالجزائر قد مسختها فرنسا مسخا وأحالت لسان أبنائها إلى عجمة وتغريب .

لقد طبع الشيخ محمد علي دبوز تلكم المؤسسة بطابعه الخاص الذي



يتميز به ، مدة ثلاثين سنة (1948 - 1981) طبعها بالعمل الجاد ، والنظام الدقيق ، والتفاني في سبيل التحصيل والمعرفة ، ولا أعلم فيمن رأيت أو سمعت من مشايخنا من استطاع الوصول إلى درجة الشيخ محمد علي غراما بالعلم ، وافتنانا به ، وانصرافا كليا إليه . فقد كان نسيج وحده في حياته الجادة التي يحمل نفسه عليها نظاما دقيقا في تصرفاته وأعماله ، ومحاسبة أدق على كل ثانية تمر من عمره ، وصبرا وجلدا قويين على ذلك النظام وتلك المحاسبة ، بل وعزيمة أشد وأقوى على أن يربي تلامذته واخوانه وأهله على هذا السلوك الصارم والإجتهاد الدائم .

لقد أعطى للعلم كل ما يملك من نفس ونفيس ، وجاهد وصابر ، وشرق وغرب غراما به وهياما فعلم وتعلم ، وأنشأ وألف ، وأخلص في كل ذلك لله علمه وأعماله فبارك الله في جهاده وترك بصماته الواضحة في هؤلاء التلاميذ والطلاب من أبنائه الكثيرين الذين ما فتئوا يذكرونه لخلاله الكريمة ، وشخصيته العظيمة . فقد كان رحمه الله يجمع بين دماثة الأخلاق وجدية السلوك . يذكرونه معلما ومربيا ويتفكهون بنوادره ونكته ، ويرددون تشبيهاته وصوره الرائعة التي كان يأتي فيها بالعجب العجاب ، والطريف الخلاب . وهم من أجل ذلك أحبوه حب الصديق ، واحترموه احترام الوالد .

ولمن فاته شرف التتلمذ على الشيخ محمد علي دبوز لا شك في أنه سيجد قبسا من هذه الشخصية التعليمية من خلال كتبه وكتاباته ، فهو يتجلى من أسطر هذا التراث الفكري الضخم الذي كرسه لتاريخ الجزائر قديما وحديثا ، بأسلوبه الأخاذ ، ومنهجه المتميز ومهما اختلفنا حول تقييم المنهج فاننا لا نختلف حول المجهود الجبار الذي بذله لجمع مادة كتبه فسهل بذلك الطريق للباحثين ، وأنار السبيل للدارسين . وستظل هذه المؤلفات إلى جانب مادتها الغزيرة ، معينا ثرا من الأدب العربي الغض ، والأسلوب السلس المبين ، فهو من القلة القليلة من المؤرخين المعاصرين الذين يكتبون التاريخ بأسلوب أدبي راق ويستنطقون حوادثه متفاعلين معها مستنبطين أبعادها معايشين لها بكل خلجة من خلجات نفوسهم ، وبكل خفقة من خفقات قلوبهم .

من أجل هذه الجوانب الثرية التي تزخر بها شخصية أستاذنا المرحوم مربيا قديرا ، ومؤلفا غزيرا ، وأديبا رقيقا من أجل ذلك كله لا أحسبني قادرا على الإحاطة بها في هذه الصفحات القليلة ، وعسى أن يشفع لي في هذا العمل المقصر حرصي على ألا تفوتني الفرصة دون أن أعبر عما أشعر به نحو أستاذي وشيخي من محبة وإحترام ، وتقدير ، آملا أن يوفقني الله أو يوفق غيري من الأساتذة ، إلى دراسة أكمل وأشمل ، والله ولي التوفيق في البداية والنهاية .

د . محمد ناصر

الجزائر في 1991/5/18



# الشيخ محمد علي دبوز في سطور

☆ ولد بمدينة «بريان» في سنة 1919 في رواية و 1918 في رواية أخرى ، تلقى تعليمه الإبتدائي بمسقط رأسه على الأستاذ المقرىء الشيخ صالح بن يوسف لبسيس .

☆ انتقل إلى القرارة ليلتحق بالبعثة العلمية في أوائل الثلاثينات .

☆ زاول دراسته الثانوية بمعهد الشباب (الحياة) في أواخر الثلاثينات .

☆ سافر إلى تونس والتحق بجامع الزيتونة حوالي 1942 أو بعدها بقليل .

☆ في سنة 1944 والحرب على أشدها قام بمغامرة السفر إلى القاهرة . عبر حدود ليبيا واضطر إلى قطعها مشيا على قدميه فرارا من الأنجليز .

☆ رابط بدار الكتب المصرية قارئا ، والتحق بجامعة القاهرة مستمعا اذ لم يكن يملك الشهادة التي تخول له الالتحاق بها رسميا .

☆ فتحت القاهرة أمامه آفاقا علمية واسعة وتخصص في دراسة : علم النفس والتاريخ ، والأدب ، وتعرف على الأدباء المصريين مثل محمد

عطية الابراشي وأنور الجندي وحضر في محاضرات وندوات كثيرة .

☆ التحق بمعهد الحياة مدرسا فور عودته إلى وادي ميزاب سنة 1948 واستقبل بإحتفال عظيم بإعتباره من أوائل الخريجين بدراسة جامعية وان لم تكن بشهادة رسمية .

☆ قام بدور عظيم في تطوير برامج الدراسة بالمعهد ، وأدخل مواد جديدة إليه مثل علم النفس والتربية .

☆ شارك بقلمه الأصيل في نشر عدة مقالات في جريدة البصائر ولا سيما ما بين 1948 - 1955 .

☆ عكف في هذه المرحلة على كتابة تاريخ المغرب الكبير بأسلوب جديد ، وقام بجولات عبر الوطن وخارجه لجمع مادته ، من المكتبات ، ومن أفواه العلماء بصفة خاصة .

☆ في سنة 1962 وبعد الإستقلال مباشرة أخذ ينشر كتبه فتلاحقت هذه المجموعات الضخمة ، تاريخ المغرب الكبير في ثلاثة أجزاء ضخمة ، نضهة الجزائر الحديثة في ثلاثة أجزاء أعلام الإصلاح في خمسة أجزاء .

☆ ترك مكتبة ثرية غنية بالوثائق المصورة والمسجلة حافلة بأمهات الكتب .

☆ انتقل إلى رحمة الله بعد مرض عضال في مسقط رأسه بريان يوم الجمعة 16 محرم 1402 هـ الموافق لـ 13 نوفمبر 1981 رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .



**... لذلك كانت موسوعة «تاريخ المغرب الكبير» التي يوالي إصدارها العلامة محمد علي دبوز ، أستاذ التاريخ بمعهد الحياة بالجزائر عملا مقدورا في مجال الفكر المغربي المعاصر ، وهو عمل كبير الدلالة على أن العمل الفكري المدروس قد أخذ طريقه فعلا في هذه المرحلة الجديدة ، على أساس البحث العلمي والمراجعات الكاملة لكل ما كتب ، مستعرضا تاريخ هذه الأجيال مراجعا كل ما كتب في هذا الصدد .**

**الأستاذ أنور الجندي[1] .**

(1) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ، ص ، 311 .

# الشيخ محمد علي دبوز
# وتاريخ المغرب الكبير

في اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر ، تمرّ على ذكرى وفاة الشيخ محمد علي دبوز ثمان سنوات كاملة . وبهذه المناسبة تحرّكت في أعماق نفسي ذكريات أيام الشباب الحيوية التي قضيتها في رحاب معهد الحياة الثانوي بمسقط رأسي (القرارة) ، وشدّتني بقوّة الى تلك السنين الست التي تتلمذت فيها على المرحوم الشيخ دبوز فاختلطت في محياي البسمة بالدمعة ، وتداخلت في طوايا ذاكرتي صور الإعجاب والتقدير بهذا الأستاذ العبقري ، وصور الأسى والأسف لما صرنا اليه من الإجحاف والجحود .

فنحن عندما نتحدّث اليوم عن الشيخ محمد علي دبوز إنّما نتحدث عن أحد أولئك الرّواد الذي سخروا القلم في إيمان راسخ لبناء الذاتية الجزائرية ، بل أحد هؤلاء الذي جاهدوا بالكلمة لإنصاف تاريخ هذه الأمة التي طالما سعى الإستعمار بعملائه من مبشرين ومستشرقين ومتمغربين لتقويض هذا التاريخ وتشويهه وجعله أداة تفريق بين شعوب الأمة الإسلامية ، وأتلفّت حولى مستقرئا مؤسساتنا ومؤلفاتنا أبحث عن شبح ظل أو ملمح لهذه الشخصية فلا أعثر لها على أثر ، وأصيخ السمع بين ضجيج هذه الضوضاء التي أصبحت تزعج أصالتنا

بالنهيق والعويل ، فلا أسمع لذكراه همسا ولا حفيفا . وأقلب الصحف والمجلات الوطنية فإذا هي ذاكرة مفقودة وإنفصام في الشخصية مريع .

ففي الوقت الذي ترفع أجهزة إعلامنا عقيرتها فيه بتمجيد أولئك الذي كانوا الى لحظة خروج الروح معاول هدم للأصالة والذاتية ، ودعاة مجاهرة للانحلال والتهتك ، نراها واجمة ساكنة لا تذكر الرجال الذين وهبوا حياتهم لتكون كلمة الله هي العليا ، وافنوا أعمارهم ليظل صوت القرآن مجلجلا في كل شبر من هذا القطر المفدى بالدم والدموع ، وأضحك باكيا من أعماقي لهذه المفارقات التي قلبت موازين الفكر عندنا ، فأصبح للإلحاد صوت يعلو ، وللعرقية والطائفية صحيفة وناد . فأي ضلال هذا الذي يدفعنا الى التنويه بدعاة اللائكية والعلمانية ولو كان هذا بأسم الأدب والمسرح وما شابههما ، فلو أن الإحتكام كان الى تعاليمنا الإسلامية ، ومبادئنا الوطنية ما ارتفع لمناوئي الإسلام صوت ولو كان أصحابه كتّابا إسما ومسمى .

واسمع صوت الشيخ محمد علي دبوز فصيحا مسترسلا من بين هذه الأصوات يعيد ما قاله منذ خمس وعشرين سنة ، وكأنه بنور الله يبصر قائلا : «إن الاستعمار اللاتيني قد زال من مغربنا الكبير والحمد لله ، ولكنه ترك في كثير من خريجي مدراسه وجامعاته من أبنائنا عقدا نفسية خطيرة هي أضّر لنا من **الإستعمار ، وأوحى الى كثير منهم بأن الإسلام ليس دين المدنية ، والعظمة وأن اللغة العربية لا تساير المدنية**»[1] . (أنور الجندي ، الفكر والثقافة ... ص309) .

(1) أنور الجندي ، الفكر والثقافة في شمال افريقيا ص ، 309 .



ترى من يتذكر أمثال هذه الأصوات النقية الصافية اليوم وقد طواها النسيان والجحود أو كاد ، أليس هذا المسلك المنحرف هو من بين العوامل التي أدت الى أن يصبح من بين أبناء الجزائر اليوم فتية مراهقون يستنكرون أن يطلق إسم محمد علي دبوز على متوسطة في حجم الكف بزاوية من زوايا الصحراء المنسية ببلدية (القرارة) ويتطاولون على مؤرخ المغرب الكبير فيرمون أعماله وجهاده بالحجارة . إن من سمات الخسران عقوق الولد لوالده ، وتطاول التلميذ على أستاذه ، وإن من علامات الإفلاس والمديونية الحقة أن نخسر المباديء والأخلاق ، وأكاد لانحراف مناهجنا التربوية أن أعفي هؤلاء المراهقين لأنهم لو عرفوه وعرفوا أعماله وجهاده حقّا ما تجرؤوا على أن ينكروه ، ولأسرعوا الى تعليق إسمه على واجهة الثانويات والجامعات ، ولما بخلوا عليه بمتوسطة بدعوى المذهبية والطائفية .

ترى هل أستطيع في هذه العجالة أن أرسم صورة لملامحه ؟ وهل أفلح في التعريف به في هذه الأسطر القليلة ؟ وهل أستطيع السيطرة على منهج الكتابة أمام تعدّد جوانب شخصيته الغنية ؟ أأتحدث عنه مربياً ناجحاً ؟ أم مؤرخاً ضليعا ؟ أم أديباً مقتدراً ؟

سأحاول أن أقترب من هذه الجوانب كلّها من خلال آثاره الفكرية لأنها الشاهد العدل على ما أقول ، وأرجو أن يحالفني التوفيق فيما فكّرت وأبديت .

قد كانت كتابة تاريخ المغرب الكبير قديما وحديثا بكل أبعاده وجوانبه عشقا وهياما بالنسبة للشيخ محمد علي دبوز ، أعطاه عمره كلّه ، ورابط في هذه الواجهة مرابطة الجهاد والتفاني ، فتحمّل

النفقات المادية المرهقة ، وتجرّع غصص شظف العيش ، وصبر للعذاب النفسي في غربة موحشة هنا وهناك إيمانا منه برسالته ، وإدراكا منه لما للتاريخ من تأثير في بناء الأجيال .

وبدأت هذه الرّحلة الطويلة الشاقة مع الكتابة في رحاب معهد الحياة بالقرارة ، ثم في أروقة جامع الزيتونة بتونس ، لتنطلق الى فضاءات القاهرة المتفتّحة بمكتباتها وجامعاتها .

فقد كان الشيخ دبوز من أوائل المهاجرين الى القاهرة طلبا للعلم واستزادة من المعرفة ، أمّها عن طريق تونس والحرب العالمية الثانية شديدة الأوار . ودخلها سنة 1944 سائرا على قدمية قاطعا حدود تونس وليبيا متستراً في ظروف الحرب العصبية ، ورابط بدار الكتب المصرية باحثا ، وجلس في مدّرجات جامعة القاهرة مستمعا ، وتعرف على العلماء والأدباء المصريين فاكتسب تقديرهم واحترامهم ، وأصبح الكرسي رقم (61) بدار الكتب يعرف بكرسي محمد علي من طول عشرة ودوام مصاحبة . وبعد غياب عن الأهل والوطن دام أربع سنوات كاملة عاد الى الوطن وقد تفتح أفقه ، وتطوّرت معارفه .

عاد الى الجزائر التي كانت تعيش في هذه الأثناء بين آلام مجزرة ماي 1945 وآمال ثورة نوفمبر 1954 ، وكان المثقفون الجزائريون يتطلعون الى تجسيد ذواتهم في كل خطرة من خطرات الزمان ، وفي كل ذرة من ذرّات المكان ، يبحثون عن وسائل الكفاح والجهاد في المدارس ، والمساجد ، والمنتديات ، والشوارع ويحاولون تجسيد كل ذلك من خلال الكتابة والخطابة والمسرح والكشافة ، والتخطيط السياسي ، والعمل الثوري الخفي .



في هذا المناخ المنتقض ، نبتت فكرة كتابة التاريخ عند محمد علي دبوز وازداد الإلحاح على تجسيدها عندما اسندت اليه مادة تدريس التاريخ بمعهد الحياة فور عودته من القاهرة سنة 1948 ، وقد اصطدم بالمغالطات التي تكتظ بها المصادر القديمة وحزّ في نفسه ما يقرأه من تعصب بيّن في هذه المؤلفات التي كان أغلبها يكتب استجابة لنزعة قبلية أو جنسية أو مذهبية ، فقد كان من وراء العديد منها ، الملوك والحكام الذين كانوا يحاربون معارضيهم بتشويه تاريخهم والباسهم لبوس الخروج عن الجماعة الإسلامية .

كما اصطدم من جهة أخرى بهذا الأسلوب العلمي الجاف الذي يقدّم المعلومات في قوالب حجرية جامدة لا تستثير عاطفة ولا تحرك إحساسا ، أو هي تستطرد في متاهات من التفاصيل التي تشوّش الذهن أو تنأى عن الحقائق الى جزئيات هامشية لاغناء وراءها .

وهذا ما دعاه الى أن يقدّم المادة التاريخية بأسلوب جديد في شكل خلاصات مركزة بأسلوب أدبي رائق ، يزيد للتاريخ وضوحا ويضفي عليه رونقا ويكسبه طلاوة تحببه الى النفوس ، فكان إقبال التلاميذ على هذه الخلاصات عظيما ورغبتهم فيها قوّية ، لأنهم اكتشفوا منهجا جديدا لم يألفوه في الأساتذة من قبل . حتى إذا كانت سنة 1950 عزم الشيخ على أن ينهج النهج نفسه في تأليف عام يتناول فيه تاريخ المغرب الكبير ، لا يتوجه به الى تلامذة المعهد وحدهم ، بل الى القاريء العربي حيثما كان ، وخطط لعمل يحتوي على عشرة أجزاء كاملة يتناول فيها تاريخ المغرب الكبير قديما وحديثا ، كما أسلفت ، وكان يشغله في هذه الأثناء همّان مقلقان : همّ

جمع المادة من مصادرها الحقيقية ولا سيّما ما كان منها موزعا في صدور الرّجال من التاريخ المعاصر ، وهمّ إيجاد منهج إسلامي أصيل يصحّح به ما تواطأت عليه الكتب القديمة مادّة وطريقة ، ولم يكن من السهل على أستاذمثل الشيخ محمد علي المعروف بانضباطه ونظامه ، أن يجمع بين تحقيق هذه الأمنية وبين رسالته التعليمية في معهد الحياة التي كانت تأخذ منه حوالي عشرين ساعة أسبوعياً تتوزعها مواد مختلفة من التاريخ والأدب ، وعلم النفس ، والمنطق ، ولكن الشيخ كان نسيج وحده في تنظيم أوقاته ، دقيقا في برمجة جدول أعماله اليومية ، فهناك وقت لتحضير الدروس ، ووقت للكتابة والتأليف ووقت للتدريس بالمعهد ، ووقت للأهل والإخوان . وهكذا راح يغالب في إصرار مجتمعا تكثر فيه الإرتباطات الإجتماعية ، وتتحكم فيه العادات والتقاليد ، وتنأى به عن العمل الجاد كثرة الأعراس والمناسبات ، وجلسات المفاكهة والسمر ، وقد واجهته في البداية صعوبة إفهام الناس الذين تعوّدوا على أن يكون مشايخ العلم والدين زينة تلك المجالس ومتصدّريها ، ولكن بفضل عزيمته القوية ، وصرامته الى حد القسوة على نفسه ، ما لبث الناس أن عرفوا ذلك في طبعه فأحبوه واحترموه بل ان الكثير من تلامذته قد تأثروا به وقلدوه في نظام حياته .

وهكذا راح بوحي من إيمان عميق برسالته يتحدّى الصّعاب ويغالب العقبات المادية والمعنوية ، وكانت البداية بالوسائل الخاصة آلة تسجيل من النوع القديم الثقيل ، ودفترا وقلما لتسجيل الأسئلة والخواطر ، وعزيمة فولاذية لمجابهة الظروف العصيبة . وراح الشيخ



يذرع الجزائر شرقا وغربا يجلس الى العلماء والأدباء والمصلحين يسمع عنهم التاريخ مباشرة ، فلم يترك بلدة من نواحي القطر يحسبها ضرورية لمشروعه إلا وسافر اليها . فتسمع أحيانا أنه في بسكرة يجمع مادة علمية عن الطيّب العقبي ، وأخرى في تبسة عن العربي التبسي ، وفي قسنطينة عن الشيخ ابن باديس ، وفي سطيف عن الشيخ الإبراهيمي ، وهكذا ، وهكذا ، وهو في كلّ هذه التنقّلات المستمرّة المرهقة ، لا يملك وسيلة نقل خاصة ، وإنما هي وسائل النقل العامة ، وأحيانا تكون الجهة التي يقصدها لا تتوفر على هذه الوسائل .

وهكذا جمع مادة غزيرة عن أعلام الإصلاح في الجزائر ، وجمع مادة أغزر عن النهضة العلمية ورجالاتها بوادي ميزاب ، وكشف بفضل جهوده المعتبرة النّقاب عن شخصيات جليلة كادت الأيام أن تطويها إهمالاً ونسياناً .

وأخذ مشروعه العلمي يتحقق سنة بعد سنة ، ويخرج للعيان كتابا بعد كتاب ، ولا يستطيع أن يقدّر جهوده في هذا المجال إلا من أطلع على الأشرطة الكثيرة التي سجلها في مقابلاته الطويلة مع العلماء ورجال الفكر ، ورأى بعينيه هذه الذخيرة القيمة التي جمعها من صحف قديمة ، ووثائق وصور ، ورسائل ، فقد تجمّع له بفضل الحرص الدّائب ركام هائل من هذا التراث القيم الذي نأمل أن يحافظ عليه أنجاله الكرام في مكتبته بمسقط رأسه (بريان) ، وأن يسهّلوا لطلاّب العلم والباحثين والدّارسين والمهتمين الاطلاع عليها والإستفادة منها ، فذلك هو حق والدهم وأمتهم عليهم .

ولم تكن جهوده وهو يجمع مادته التاريخية تقل عن الجهود الجبارة ، والتضحيات الغالية التي بذلها من أجل طبع كتبه ، فما أن استقلت الجزائر حتى زمّ حقائبه متوجها الى القاهرة ليطبع كتابه الأول تاريخ المغرب الكبير ، ورابط بها قرابة سنتين بعيداً عن الأهل لينجز هذا العمل الضخم ، كان ذلك تم بين سنتي (1962 - 1964) وكنا طلابا بالقاهرة ، كنا نزوره في غرفته من حين الى آخر (ببنسيون) قديم في حي (التوفيقية) في قلب القاهرة ، فنجده غارقا بين أكوام الكتب باحثا ومنقبا أو بين ركام الأوراق والمسودّات ، مصححّا ومصوبا ، وكان (رحمه الله) صارما في تنظيم وقته كما أسلفت ، لذا كان يبادرنا فور التحية مباشرة قائلا لديكم معي يا جماعة عشر دقائق أو ربع ساعة أو أقل أو أكثر ، ولم نكن نتأذى من سلوكه ذلك أبدا ، بل كان مثار إعجابنا وتقديرنا لجديته في العمل ، وتقديره الدقيق لقيمة الوقت ، ومحاسبته الشديدة نفسه على كل ثانية من عمره .

وما زلت أتذكر - ولعلّ الكثير من طلابه يتذّكرون - كيف كان يوصينا من حين الى آخر على مصاحبة أمّهات الكتب ، ومراقبة النفس في العمل الجدي المفيد ، وقد تعلّمنا منه ذلك الشعار الذي مازال يدويّ في أنحاء النفس «عليكم بالفرس الأدهم» وهو يعني المطالعة والكتابة والعمل الجديّ في السّحر حين يكون البال أهدأ ، والذهن أنشط ، والسّكون يغري على العمل والتفكير حقاً ، وحين لا يسمع المرء إلا أنفاسه وحفيف أوراقه . كان يرابط بغرفته تلك منكبا على التأليف والتصحيح مدّة أسبوع كامل لا يخرج خلالها إلا الى



مطبعة (عيسى البابي الحلبي) ، حيث يتابع طبع كتبه ، أو يخرج الى السوق لقضاء حاجاته الضرورية ، وهو لا يعرف الراحة إلا يوم الجمعة التي يخصّصها لزيارة أصدقائه المصريين أو أبنائه الطلبة الجزائريين ، وتلك هي وسيلة الراحة والإستجمام عنده ، وكان في جلساته تلك مع إخوانه خفيف الرّوح ، دائم الإبتسام ، يعشق النكتة الظريفة ويضحك لها من الأعماق ، وهو يشيع جوّ المرح بين إخوانه حتى يخفف عن نفسه أتعاب الأسبوع المرهقة ويشحذ ذهنه لعمل مقبل .

كان ذلك طبعه ومنهج حياته حيثما كان ، في القاهرة أم دمشق أم الجزائر أم قسنطينة أم القرارة . وكانت تلك طريقته وهو ينتقل بين هذه المدن كلّها ليطبع كتبه .

وبعد كفاح دام أكثر من ثلاث سنوات من الجهد المتواصل أخرج الجزء الثاني والثالث من المغرب الكبير ثم الأول ، وهو يحلّل ذلك بقوله «**إن تاريخ المغرب قبل الإسلام وإن كانت حلقاته مظلومة . فإن الذين ظلموه إنما هم الرومان والمستعمرون اللاتينيون الذين يتبين أبناء المغرب أكاذيبهم . أما الفتح الإسلامي ، وتاريخ المغرب في القرن الثاني والثالث الهجري ، فقد كان الذين شوهوه بالأكاذيب إنما هم الملوك القدماء وصنائعهم من المؤرخين .. الذين ينخدع بهم أبناؤنا وإخواننا في المشرق فيقعون في أخطاء فاحشة تسيء الى المغرب**»[1] .. وما لبث الكتاب ان استقبل استقبالا

(1) تاريخ المغرب الكبير ، ج2 ، ص ، 32 .

حافلا في الأوساط الثقافية مشرقا ومغربا فتكلمت عنه الاذاعات العربية ، وكتبت عنه جريدة الأهرام ، ومجلة الأزهر ، ومجلة الآداب والأديب ، ومجلة العلوم ، ومجلة العربي ، وغيرها .

وكان جديرا بهذه الحفاوة البالغة التي استنفدت من الشيخ دبوز بحثا دقيقا في مكتبات القاهرة وتونس ، وتقليب أغلب مكتبات الجزائر ووادي ميزاب حيث استطاع أن يكشف النقاب عن بعض المخطوطات المهمة مستخرجا إيّاها من الرفوف القديمة والصناديق العتيقة ، وكانت من قبل مسرحا للأتربة والأرضة .

وبفضل الجهد العظيم المتواصل الذي استمر خمسا وعشرين سنة ، أخرج الى النور هذه الموسوعة التاريخية من تاريخ المغرب الكبير بأجزائه الثلاثة ، ونهضة الجزائر الحديثة بأجزائه الثلاثة أيضا ، وأعلام الإصلاح في الجزائر بأجزائه الخمسة . وكان يتحمل وحده تبعات الطبع والنشر والتوزيع ، وقد واجهته في هذا الصدد مشاكل بيروقراطية صعبة ، وتحمل النفقات الباهضة التي لم يخفف حملها المرهق عنه إلا بعض المحسنين وعلى رأس القائمة أبوه الذي سخر له ماله لطبع الأجزاء الثلاثة من كتابه تاريخ المغرب الكبير .

وليس أدل على معاناته الشديدة في هذا الصدد من أن كميات كثيرة من كتابه الأول ، ما تزال الى حدّ الساعة مهملة بالقاهرة تعاني من بيروقراطية الجمارك والبنوك وما أشبه ، وتقوم شاهدا على وضعية الكتاب العربي ومكانته في وطننا العربي . ومعاناته مع التوزيع أشدّ وأعتى ، فقد كان يلاحق أصحاب المكتبات المماطلين في دفع ما عليهم من واجب ، وكثيرا ما آلت الملاحقة اللاهثة الى استسلام بالواقع المر واحتساب الأجر عند الله .



ورغم هذه المعاناة القاسية ، فإن الشيخ دبوز لم ييأس ولم يستسلم ، وقد أثّر ذلك على صحته وسمعه في أخريات حياته ، ولم يتوقف عن الطبع والإنتاج لحظة واحدة ، فما أن ينتهي من طبع كتاب حتى يواصل الجهد لطبع آخر ، وما أن يلتقط الأنفاس من مرحلة حتى يشمّر على ساعد الجد لمواصلة السيّر على الشوك في مشروع إنتاج جديد ، وكان ذلك دأبه الى أن وافاه أجله وهو يغالب المرض في مسقط رأسه (بريان) ، في الثالث عشر نوفمبر من سنة 1981 عن عمر يناهز الثالثة والستين ، فرحمة الله عليه ما استفاد من هذا التراث الضخم باحث أو دارس .

واذا كانت مكانة الشيخ دبوز غير معروفة بالقدر الذي تستحقه في الجزائر ، فإن كتابا مشهورين من المشارقة عرفوه واحترموه ونوهوا بفضله ، نذكر من بينهم الكاتب الإسلامي الأستاذ أنور الجندي الذي كان من أعزّ أصدقائه ، والأستاذ محمد عطية الإبراشي المفتش العام للغة العربية بمصر سابقا ، وغيرهم كثيرون ، ويكفيه فخرا واعتزازا أن تكون مؤلفاته اليوم متصدرة مكانها في رفوف المكتبات العالمية الشهيرة ، مثل الكنغرس الأمريكي ، والاسكوريال ، واكسفورد ، وكمبردج ، ومكتبة العالم العربي بباريس ، ودمشق ، والقاهرة ، وبغداد وغيرها .

ولعل بعض المؤرخين الجزائريين من الجامعيين ، اعترفوا بفضله حين رشحوه لوسام المؤرخ العربي ببغداد منذ سنين . وقد توّج هذا التّشريف الشهادة الشرفية التي منحها إيّاه السيد رئيس الجمهورية بمناسبة مرور ربع قرن على الإستقلال .

ولا بأس أن نختم هذه العجالة بما قاله الأستاذ أنور الجندي عنه في كتابه (مفكرون أدباء) .

**«... تعد موسوعة تاريخ المغرب الكبير من الأعمال الكبيرة الدلالة على قدرة الجزائريين في ميدان الفكر كقدرتهم في ميدان الحرب ، حين يقوم مؤرخ باحث كالأستاذ دبوز بكتابة أكثر من خمس آلاف صفحة مستعرضاً فيها تاريخ هذه الأجيال ، مراجعا كل ما كتب في هذا الصدد ، كاشفا عن عشرات من الحقائق التي شوّهها المؤرخون والكتب ::»**[1] .

أما الأستاذ محمد عطية الإبراشي فيقول في مقدمة الجزء الأول من تاريخ المغرب الكبير **«... هذا أوّل كتاب صفى تاريخ المغرب من زيف السياسة القديمة والاستعمار اللاتيني ، ونادى بالوحدة والتضامن والمحبّة والتعاون بين أهل المغرب والعالم الإسلامي . فالأستاذ الأديب المؤرخ محمد علي دبوز جدير بكل تشجيع وإعجاب وتقدير من العالم الإسلامي والامة العربية كلّها لما قام به من مجهود مشكور سيذكره له التاريخ ..»** (ص10) .

**الجزائر في 1989/11/07**

(1) أنور الجندي ، مفكرون أدباء ، ص ، 248 .



**... والحق أن الكتاب بأجزائه الثلاثة ليس في حاجة إلى من يقدمه ؛ فمادته غنية كل الغنى ، تدل على سعة في الإطلاع ، وتعمق في البحث وراء الحقيقة ، للوصول إلى الحق ، والحق وحده ، كما تدل على المجهود الكبير الذي بذله في تأليفه ، وتخليصه من الأكاذيب التي دسها الكتاب من المستعمرين . وهو أول كتاب عربي جزائري يطبع بعد إستقلال الجزائر ....**

**الأستاذ محمد عطية الأبراشي**[1] .

(1) تاريخ المغرب الكبير ، ج ، 1 ص ؛ 5

# محمد علي دبوز والمنهج الإسلامي لكتابة التاريخ

يعتبر الشيخ محمد علي دبوز من جيل الرواد الذين تحملوا على عاتقهم عبء الكتابة عن تاريخ الجزائر إن لم نقل المغرب الكبير، وهو في هذا الصدد لا يقل أهمية وعطاء عن الذين مهدوا هذا السبيل من أمثال الشيخ مبارك الميلي، وأحمد توفيق المدني، وعبد الرحمن الجلالي وغيرهم من مؤرخي الحركة الإصلاحية الذين نعدّ كتاباتهم – مهما قيل عنها – مصادر أساسية لا يمكن للدارس الإستغناء عنها أو القفز عليها.

وأود في هذه الذكرى الثامنة لوفاته أن أوضّح المنهج الإسلامي الذي توّخاه في كتاباته التاريخية. فقد كان، رحمه الله، من أشد الكتّاب حرصا على هذا النهج نظَّر له في مقدّمات كتبه، وطبقه في تدريس هذه المادة بمعهد الحياة مدّة ثلاثة وثلاثين عاما.

ولعل أول سؤال يتبادر الى الذهن هو لماذا التاريخ بالذات ؟

لِمَ لَمْ يتوجه محمد علي دبوز الى الأدب المقالي أو القصصي أو الشعر وقد كان من أبرز الكتّاب الجزائريين مقدرة على التعبير، ومن أبرعهم إمتلاكا لناصية البيان العربي ؟

أحسب أنه قبل الجواب على هذا السؤال لابد أن نذكر أن التوجه

العام لدى الكتاب الإصلاحيين هؤلاء الرواد الذين كانت الكتابة في تقديرهم أداة جهاد وكفاح ، فهم ينظرون الى الكتابة من منظور إسلامي وطني ، هذا المنظور الذي يعتبر حامل القلم لا يقل مسؤولية عن حامل السيف ومن ثم جاءت هذه المجانسة بين السيف والقلم عند التحدث عن بعض الزعماء فيقال فلان أمير السيف والقلم .

وللمرء أن يعود الى هذا التراث الضخم المبثوث في صحافتنا الوطنية في العشرينيات والثلاثنيات والأربعينيات ليلمس مدى العناء المتأجج الذي كان أولئك الكتّاب يعانونه وهم يحتضنون الحرف العربي .

ومن هنا تغدو مسؤولية الكتابة أمانة رسالية يحاسب الأديب عليها نفسه وهو يخشى في هذه المحاسبة حساب الله له . وما الشيخ دبوز إلا واحد من هؤلاء الروّاد الذين سخّروا القلم ليعبّروا به عن معاناتهم واحساسهم تجاه أنفسهم ومجتمعهم وربهم . فالكتابة اذا كانت مسؤولية وأمانة ورسالة ، وفي كتابة التاريخ بالذات ما يبلغ هذه المشاعر من أقرب طريق .

وفي مقدّمة أوّل كتاب جزائري يصدر باللغة العربية بعد الإستقلال يتشرف الشيخ دبوز بتوضيح منهجه الإسلامي ذاك وهو يؤرخ للمغرب الكبير ويخصص أربعين صفحة كاملة يحلل فيها مفهومه وتصوّرة ورؤيته لكتابة التاريخ ، ويبيّن البواعث والأسباب التي دفعته لخوض هذا الغمار مع نقص الوسائل والإمكانات المادية والتقنية في الجزائر غداة الإستقلال ، وأنا لا أحب أن ألخّص أو استعرض هنا ما جاء في تلك المقدمة الطويلة (ينظر الجزء الثاني من



تاريخ المغرب الكبير ، ط ، القاهرة 1963) فإن الرجوع الى الكتاب في هذه الحالة أيسر وأجدى ، وإنما أرغب في أن ألفت نظر القاريء الكريم الى أهم عناصرها ، وأوضح له بكل تواضع أن الآراء التي طرحها الشيخ دبوز جديرة بالعناية والدراسة وليس «دشا وكلاما فارغا» كما ذهب الى ذلك بعض الدكاترة (ينظر مجلة المعرفة الجزائرية الأعداد 6 ، 7 ، 9 ، 10 ، 1963) يقول الشيخ دبوز عن أهمية كتابة التاريخ الذي يعتبره وسيلة من وسائل البناء والتشييد بعد الاستقلال كما كان بالأمس وسيلة للجهاد والكفاح في عهد الإحتلال موجها كلامه الى أبناء المغرب العربي كله : **«إن التاريخ هو الفن العظيم الذي حرمنا الإستعمار البغيض منه ، وحرّمه علينا ، فيجب أن نبادر بعد إستقلال المغرب فنأخذ حظنا منه ، وننتفع به في تربية الأجيال القادمة ، ونبرز تاريخنا وثوراتنا المباركة في المغرب في أسلوب أدبي طلي يحبّبه الى القراء ، وفي تحليل علمي وبحث نزيه يصفيه من الأكدار والأكاذيب التي ملأه بها الملوك القدماء والمستعمرون ، إن هذا فرض على أدبائنا العلماء بعد الأستقلال»** ص27 .

ومن منظور الأستاذ المربي الذي يقدّر رسالته التربوية والأخلاقية من أجل إعداد جيل صالح ، ينظر الى مادة التاريخ التي أحبها الى حد كبير على أنها من أهمّ العوامل التي تساعد على توجيه الناشئة توجيها إسلاميا صحيحا ففي إستطاعتها أن تغرس الفضائل الحسنة في نفوسهم وتزرع بذرة الخير والصّلاح في أعماقهم ولذلك كان - رحمه الله - يركز في دروسه على استخلاص العبرة من كل حادثة

ومشهد ، ويحرص الحرص كلّه على تنبيه أذهان الطلاب الى النتائج المستخلصة من الوقائع والحوادث ، وربما أخذ ذلك من وقته أكثر ممّا يأخذ سرد الحادثة أو وصفها إيمانا منه - كما يقول - **«إن التاريخ أكبر عامل في التربية الخلقية ، وأقوى سبب يخلق الأخلاق العظيمة في النفوس ، والأخلاق العظيمة هي أساس رقي الإنسان في عقله وفي جسمه ، فهي التي تستتبع كل المزايا ، وتقتضي تفوقنا في كل النواحي فهي الغاية التي يجب أن نستشهد منها في التربية ونقصدها في مدارسنا وفي بيوتنا وفي مجتمعنا ونعتني بها في كل درس وفي كل عمل ..»** (ص14) .

وهو يوضح أبعاد هذه النظرية بإيراد الأمثلة ، ويحلّل الفكرة تحليلا عميقا حيث يبيّن كيف يكون التاريخ وسيلة للتربية الصّالحة مستفيداً في كل ذلك من تجاربه الطويلة في ميدان التدريس ، ويعلّل هذه النظرية تعليلا طريفا لم أقرأها لأحد غيره حيث يقول **«إن التاريخ هو الذي يمكننا من اختيار البيئة الإجتماعية الصافية الرّاقية التي نحدث بها الآثار التي نريد في التلميذ ، أما البيئة الإجتماعية الواقعية فقد لا تطاوعنا ولا نستطيع أن نجد فيها كل ما نريد ... أما في التاريخ فنستطيع اختيار العصر الزاهر أو الشخصيات العظيمة كالرّسول والصحابة والنابغين والسلف الصالح من أئمتنا»** (ص17) .

وهو لا يعني أن التاريخ يدرس بطريقة إنتقائية فذلك ما لا يوافقه عليه أي إنسان ، ولكن الذي يعنيه هو أن التاريخ الإنساني



مجال واسع للإختيار إذ يغدو وسيلة توضيحية وتربوية ينجذب اليها التلاميذ لما في أجوائها من إثارة الخيال ومتعة القص .

ومن ثم فهو يضع هذه النظرية في إطارها النفسي ويعللها تعليلا علميا مقبولا وهو ما يبرز لنا الوجه الآخر من شخصية الشيخ دبوز الذي كان عظيم الشغف بعلم النفس ولا سيما علم نفس الطفل ، وقد كانت هذه المادة أساسية لطلاب المعهد المتأهبين للتخرج إذ قد يكون من بينهم من يتوجه الى التعليم حيث تكون هذه المعلومات أساسية للمدّرس النّاجح .

ويوضح هذه النظرية قائلا **«إن التاريخ أجدى في التربية وفي غرس الأخلاق الحسنة والذود عن الأخلاق السيّئة من دروس الأخلاق النظرية ومن الوعظ والإرشاد النظري ، لأن التاريخ يجسم مجال الفضيلة في سلوك الصّالحين فتكون أكثر إدراكا له ، وأشد إعجاباً وأقوى تأثرا ، ويجسم الرذيلة في سلوك المذنبين فنكون أكثر إدراكا لبشاعتها وأشد نفورا منها ، والمرء يتأثر بالمحسوس الواقع الذي يدركه بحواسه أو يرسمه التاريخ والقصّة في خياله فيتمثّله في حقيقته وكأنه يراه أكثر من تأثره بالمعاني ..»** (ص19) .

إن العناية بالتربية الخلقية استعانة بدروس التاريخ - كما يقول - هي أكبر فرض علي المربي وإلا كان مقصرا في التربية ، بل يعتبره مخلا بواجبه الوطني لأن رسالته هي أن يكوّن جيلا مسلما خاليا من العقد النفسية الموروثة ، ومن العقائد البالية الفاسدة ليكون صفا مرصوصا وبنيانا متينا (أنظر ص21) .

والمدرس عندئذ لا يمكن أن يكون ناجحا إلا إذا عشق تدريس هذه المادة الى حدّ الهيام ، ومن ثم فإنه يبيّن بعض المواصفات التي ينبغي توفّرها في هذا المدرس وما هي الطرق البيداغوجية التي يتطلب منه إتباعها في طريقة التدريس ، وأول هذه المواصفات الإقتناع التّام بما يقوله لتلامذته ، والإنفعال القوي مع دروسه أثناء العرض والتحليل «**فيجب أن ينبع التاريخ من أعماقه متأجّجا بوجدانه ومن عقله ممتلئا بفلسفته لا من لسانه وحده فيكون أخبارا باردة يسردها ، وأنباء عتيقة ميّتة يحكيها ..**» (ص23) .

وما من شكّ في أن الكثير من أساتذة التاريخ اليوم قد يختلفون مع الشيخ في هذه النظرية ولا سيّما أولئك الذين يؤمنون بمناهج الغرب فيما يسمى بالموضوعية ، والحياد العلمي ، والبحث النزيه وما أشبهه. وأحسب أن الموضوعية شيء نسبي في كل ما نقول وما نكتب ، فليس ثمّة كتابة ولا سيّما في العلوم الإنسانية يمكن القول عنها أنها موضوعية محض ، لأن الكتابة تصدر قبل كل شيء عن رجل ما ، والأسلوب هو الرجل في البداية والنهاية . وإنما يكون التفاوت بين من تغلب عليه العاطفة فينساق وراءها ، أو بين من يحاول تحكيم العقل فيسترشد به الى حد .

والواقع أن الشيخ دبوز يوضح نظريته هذه وهو يتحدث عن دور المربي من خلال المفهوم الإسلامي الذي ينظر الى دور المعلم الذي يسمو الى درجة تقربه من دور الرسل ، ولا ينظر الى تدريس المادة من خلال المفاهيم الغربية التي أغرقنا بها المستشرقون والمتغربون ،



حتى غدت كتابة التاريخ عند بعضهم لا طعم لها ولا لون ، بل إنّ المرء ليحسّ وهو يقرأ بعض هذه الكتب الأكاديمية وكأنه يمضغ كاغدا ما يلبث أن يلفظه .

يقول الشيخ دبوز «**لنحقق النتائج التربوية بالتاريخ يجب أن يتحمس المدرس والمحاضر والمربي للفضيلة في تاريخ العظماء ولكل الأشياء الحسنة في الأمة التي ندرسها والدولة التي نعرض تاريخها ليفيض وجدان المربي والمحاضر على تلاميذه فيكون وجدانهم فيعجبُون مثله بالفضيلة فينبهون لها ، ويدركون جمالها ، ويكونون مثله في التعلق بها والرغبة فيها ، كما يجب أن يمتليء كرها للرذيلة وللخيانة ورقة الدين ولكل الأشياء السيئة في التاريخ ليكون تلاميذه على وجدانه فيمقتونها ويهربون منها..**» (ص23) .

والمنهج الإسلامي عند الشيخ دبوز لا يتجلى من خلال ما أشرنا اليه سابقا - وأغلبه كما لاحظ القارىء الكريم له علاقة مباشرة بتربية الناشئة الإسلامية - وإنما هو يتعدي ذلك الى طموح أسمى وهدف أرقى ، إنه يتطلع الى أن يكون التاريخ عامل وحدة تجمع بين شعوب الأمة الإسلامية يذكرها بأمجادها الماضية لتحن الى إعادتها ، ويحرك في أعماقها الجراح لتعمل على التغلب عليها ، لذا ينبغي على المؤرخ المسلم أن تكون نظرته متجاوزة لهذه الفوارق مهما يكن نوعها أجناساً أو مذاهب ، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا اذا سادت النظرة الموضوعية المتعالية على العواطف والأهواء وهي تتطلب ولا شك

شجاعة وجرأة لأنها ستعصف بكثير من النظريات والمعلومات التي أصبحت متداولة بين المؤرخين على أنها حقائق لا تناقش ، ومن ثم راح يسلّمها السابق للاحق وتغدو عند الجميع مسلّمات لا يمكن مناقشتها .

وهو يدعو الى هذا الطرح الأصيل بحماسه وقناعة حيث يقول **«... يجب أن نكون نزهاء أمناء في التاريخ لا نتعصب ولا نقلد ونتنبه كل التنبه الى كتب التاريخ الإسلامي القديمة فإنها مملوءة بأكاذيب الملوك ، ودعاياتهم الباطلة ، ويجب ألا نترك إلفَنا وما ردّده أجدادنا فاستقر في عقلنا الباطني يكوّن أحكامنا ، وفي التاريخ يجب أن ننظر بعقولنا ونبحث بحثا منطقيا خالصا لا توجهنا العواطف الموروثة ...»** (ص24) .

إن تطبيق هذا المنهج قد ظهر عند بعض المؤرخين المشارقة المحدثين مؤخراً حيث صدرت بعض المؤلفات التي تعنى بتصحيح الأخطاء التي وقع فيها المؤرخون القدامى ، نذكر من بينها .. التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين ، لمؤلفه الدكتور فاروق عمر ، وقد صدرت الطبعة الثانية منه عن دار إقرأ ببيروت سنة 1985 ، وكتاب : أباطيل يجب أن تمحي من التاريخ ، لمؤلفه الدكتور إبراهيم علي شعوط ، وقد صدرت الطبعة الخامسة منه عن المكتب الإسلامي ببيروت سنة 1983 ، والواقع أن ابن خلدون نفسه الذي وقع في بعض المزالق يقول في هذا الشأن **«إنه كثيرا ما وقع للمؤرخين أئمّة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع**



**لإعتمادهم فيها على مجرد النقل غثّا أو سمينا ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فضلوا عن الحق ، وتاهو في بيداء الوهم والغلط ..»** (المصدر السابق ص3) . لهذه الأسباب جميعها نرى الشيخ دبوز اتعاضا بمن سبقه يؤكد على هذه النظرية .

فإذا كان يفضل أن تنتقي للتلاميذ الصور الجميلة من تاريخنا نظرا الى مستوى أعمارهم ومداركهم ومدارج تربيتهم ، فإنه هذه المرة يحثّ على ضرورة الوقوف على مواطن التعثر لوضع الخطى على الطريق السويّ ، ولا بأس عندئذ من ذكر هفوات الأجداد ليتجنّبها الأحفاد حتى يقفوا على ما أثار الأعاصير في وجوههم وبذلك نحذّرهم منها ونفتح عيونهم على ما أودى بدولنا القديمة من أمراض **«كالإنغماس في الحضارة والركون الى الراحة والإتصاف بالأنانية وبالعصبية القبائلية والمذهبية وبالحسد الذي هو أم الخبائث كلها وهو الذي أودى بدولنا الإسلامية وشق جماعة المسلمين فداخلها سوس الإستعمار ..»**(ص21) .

وبهذه النظرة الموضوعية يكون التاريخ عامل وحدة بين الشعوب الإسلامية ، وما عنايته بتاريخ المغرب الكبير إلا لبنة في هذا التطلع الطموح الذي لم يكتف فيه بالتنظير وإنما سعى اليه بتأليفه الضخم الذي بلغ آلافا من الصفحات . وكان يدعو الى وحدة المغرب الكبير بحرارة وإيمان في كل ما يكتب ، ووضع هذه الدعوة في صدارة كتابه الذي أصدره سنة 1963 ، أي بعد الإستقلال مباشرة حيث يقول **«إنا**

**لنرجو - وقد تحررت الجزائر - أن نرى المغرب الكبير يرجع الى عهود أسلافه فيكون على نظام فدرالي ، وتحت حكومة عليا يختارها المغرب فتجد العربية ، ويجد الإسلام ، ويجد إخواننا في المشرق العربي المغرب المتماسك الذي تضافرت جهوده وكمّل بعضه بعضا ، فأصبح قاعدة الإسلام والعروبة التي لا تتزعزع ، وسيف الله الذي يسلط على أعداء الدين والعروبة فيبيدهم ...»** (ص35) .

وهكذا كان الشيخ دبوز في كتاباته بحق أحد أولئك الروّاد الذين أرسوا قواعد هذا المنهج الإسلامي الواضح ، فقد كان - رحمه الله - شغوفا الى حدّ الوله بتاريخ أمته الإسلامية ماضيا وحاضرا ، همّه المقعد أن يستخدم هذه الكتابة في سبيل رسالة تربوية سامية تهدف الى تربية الجوانب الأساسية في شخصية النشء المسلم جانبه الديني وجانبه الوطني وجانبه العلمي ، ولا يقلل من جهوده العظيمة تلك - فيما أحسب - ما يمكن أن نلحظه من أسلوب يطغى عليه الخيال الشعري ، والمبالغة العاطفية أحيانا ، فإن هذا الأسلوب في حدّ ذاته هو جزء من شخصية الشيخ دبوز ، وهو يجسد بأسلوبه ذاك مرحلة من مراحل التعليم في الجزائر ، إن لم نقل في الوطن العربي ، حين كانت المواد الأدبية الكلاسيكية طاغية على مناهج التعليم ، وحين كانت الأساليب التي ينسج على منوالها الطلاب ، هي أساليب العصر العباسي من أمثال الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وأضرابهم ، أو هم يترصدون خطوات العالقة من العصر الحديث مثل الرافعي ، والزيات ، وزكي مبارك ، وتأثّراً بهؤلاء الرواد كان الشكل يلعب



دورا أساسيا في أنماط التعبير ، ويعتبر جانبا هاما في عملية التواصل بين الكاتب والمتلقي ، لذا ينبغي ألا نؤاخذ الشيخ دبوز وأمثاله من الكتاب الإصلاحيين هذه المؤاخذة القاسية وندعي - في إجحاف - أن كتابه : تاريخ المغرب الكبير **«أولى به الاعدام حرقا»** ونستنقص من قيمة الجهد لأن صاحبه **«حاول استعراض بلاغته ومعرفته بأكبر عدد من الألفاظ والتشبيهات»** إدعاء منا بأن هذا اللون انقرض من الكتابات العربية الحديثة .

ولسنا نوافق ما ذهب اليه بعض النقاد الى أن كتابه تاريخ المغرب الكبير «خيّب ظن المثقفين الثوريين» لا لشيء إلا لأن المؤلف لم يقرأ ماو تسي تونغ ، وداروين ، وارنولد تونيبي ، وكلود كوهين وأضرابهم . ولم يتعلم منهم فلسفة التاريخ ولم يتتلمذ لهم في أصوله وقواعده . (أنظر مجلة المعرفة الأعداد المذكورة) .

وحسب الشيخ أصالة وتقعيدا ، أنه كتب متأثرا بابن خلدون المسلم ، لا متتلمذا لنكولا بييرديف الروسي ، واتبع في منهجه منهجا إسلاميا يصدر فيه عن إيمانه بأن الكتابة رسالة تربوية ، وهدف تثقيفي نبيل ، وقد كان الشيخ واضحا صريحا حين قال : «إن التاريخ للتربية الصحيحة ولبث الروح القوية في الأمة وإذكاء الحماس للمثل العليا في القلوب ، ولكن التاريخ لا يؤتي ثمارة ونتائجه التربوية العظمى إلا إذا ألقينا دروسه في تحليل علمي ، وفي روح خطابية ، وفي أسلوب طلي» (ص23) .

**الجزائر في 1989/11/05**

# نماذج من كتابته

## تاريخ الجزائر العام
## للشيخ عبد الرحمان الجيلالي

كتاب تاريخ الجزائر العام للاستاذ عبد الرحمن الجيلالي سفر مهم لا تحصى فوائده ، ولا تعد عائداته ، قد أسدى به للجزائر يدا تشكر ، وأهدى منه لأبنائه منة عظمى ، بما صور لهم من ماضيهم المشرق ، ورسم لهم من مجدهم التليد ، ورفع الستار عن جدودهم فرأو أي سماء كانت تسبح فيه الجزائر ، وأي عز كانت تجرر أذياله وأي عظمة كان عليها قطرنا الحبيب في شخصيته ، وأي مدى بلغه في الحضارة والرقي حتى صار في قديمه مهوى الأفئدة من الدنيا ، ومحل الإعجاب في العالم ! واحياء الأجداد في الأسفار بعث لهم في الدماء فتستأنف مجدها ، وتعاود بالخلف سيرتها ؛ والأمة التي تناهض العقبات فتتقدم ، وتحاول السير لتصل هي التي تثق بنفسها بما تعرف من تاريخها ، وتحفظ من مجدها واذا كان المجد وراثة أيضا في الدماء فترفع رأس صاحبها فلا يستكين ، وتجعل الفرخ من الصقور على

التناهض للعلى وان لم يشاهد الآباء فيقتدى ، فان إستعداد الإنسان للتأثر ببيئته تجعله في المجتمع الذي يتنكر لماضيه ، ويصوره له على غير حقيقة ، يثغو وقد خلق للزئير ، ويرى نفسه نعجة للحلب والذبح وهو الضرغام وقد منيت الجزائر بهذا السم المميت ، وأصيبت بهذه الداهية الفتاكة فأصبح جل شبابنا سيا من تعلم منهم في الخارج على التشاؤم من وطنهم فمات فيهم الأمل وانعدمت منهم الثقة بالنفس ، فصاروا ينظرون شزرا إلى الجزائر ويرونه حطبا يابسا لا يورق ، وصخرة جامدة لا تتحرك ، فلو عرفوا من تاريخه ما يصور لهم من شخصيته ، ويبين لهم حقيقته لعلموا أن وطنهم فذ في خصائصه ومزاياه ، عديم النظير في أقطار الشرق كلها في شخصيته ، وانه دوحة عتيدة خيم عليها الشتاء فخلع نضرتها فلو وجدت حرارة الربيع من قلوبهم الطافحة بالآمال ونفوسهم الممتلئة بالرجولة ، وجهودهم التي يذكيها الطموح فتتوالى في المحاولة وتتصل في البناء ، لرمت بظلها وصارت في حديثها كما كانت في قديمها جنة الله في الأرض تفيض بكل نعيم ، وتزخر بكل سعادة ، وتبهر قلوب الدنيا بكل العبقريات .

ان من لا يعرف ما تحتوي عليه أرضه من كنوز لا يجنح إلى الكد لإستخراجها فيترامى بالفسولة تحت الجدران تكفنه ظلالها ، ويخيم عليه كل بؤس ، قد خلا قلبه من كل أمل يحركه للعمل ، فيموت ظمئا وهو على البحر ، ويهلك جوعا وهو فوق الكنوز ، ان من أراد أن يقتل أمة قطعها عن ما ضيها بقتل تاريخها فلا يعيش في نفسها ، فيصور لها نفسها كما يريد ، جذعا خاويا لا يفرع إلى



السماء ، فتمتلىء بالتشاؤم من نفسها ، وتنعدم منها الثقة بالنفس التي هي سبب الحماس ، ومصدر المثل الأعلى الذي هو وحده يحرك الأمة للسعي ، ويبعث الإنسان على العمل ، ان الأمل هو الحياة ، وهو لا يكون الا بالإعتداد بالنفس واذا كانت معرفة الإنسان بتاريخه هي التي تخلق فيه ذلك الإعتداد ، كان من يجلى للأمة تاريخها قد نفخ فيها من الحياة ما لا يكون بغيره ، وقام فيها مقام من يرد الروح للميت فينبعث ، انه ليس هناك فن يخلق الشخصية ويبث الحيوية ويرسم المثل الأعلى كالتاريخ ! فيجب أن ننصره في المدارس ونستغله في التربية ، ونعتني به كل الإعتناء في التأليف ، ان الأمم الشرقية اعتنت بتاريخها فأبرزته في أساليب مغرية وفي معارض أدبية فأقبل عليه الشباب ، أما تاريخ الجزائر فلا زال احراجا لم تنظم ومناجم لم تنضد حتى تكون قلائد في الصدور وأقراطا في الآذان ، شكر الله للعلماء النبغاء الميلي والكعاك والمدني فقد شقوا الطريق في هذه الأحراج واستخرجوا تلك المناجم ، وجمعوا لنا من المادة في تاريخ الجزائر ما يفى بالحاجة سيا الشيخ مبارك الميلي فقد ترك لنا في كتابه ثروة عالم واسع الإطلاع ومادة منقب في الاغوار والتلاع ، الا أن ما تركه لنا في أسلوب علمي لا يغري الا الخاصة أما الناشئة فلا يستهويهم سيا وقد ألفوا أساليب القصص التاريخي ، وكتب التاريخ المتقنة الطبع والأسلوب ، فيجب علينا ابراز تلك المادة في أسلوب يليق بهذا العصر وفي نظام يستهوي أفئدة هذا الزمان ، وقد زاد الشيخ عبد الرحمن الجيلالي بكتابه تاريخ الجزائر العام في ذلك البنيان ووقف بعمله في صف هؤلاء المحسنين ، وقلد الجزائر معهم

مننا لا تحصى ، وقد بالغ الأستاذ في اخراج كتابه فجاء من حيث الطبع في حلة أنيقة وفي مظهر جميل ، أما من حيث الأسلوب فمتوسط ، فليت الأستاذ جمع إلى جمال المظهر طلاوة الأسلوب وحلاوة التعبير ، وحسن العرض ليجذب الناشئة إليه واذا كنا في الأسلوب لا نطالب الشيخ بأكثر مما أتى لأنه أعطانا جهد الإستطاعة وغاية ما وصلت إليه الطاقة ، فاننا في بحثه نلاحظ عليه الايجاز الذي لا ينبغي في بعض الأبواب ، والتقصير المخل في بعض الفصول وعدم التدقيق في بعض الحوادث وسأضع يد الأستاذ على بعض ذلك هدية من صديق يغار عل تاريخه أن يشينه شوب ، وهداية للصديق فلا يقع في مثلها في الجزء الثاني .

فأول ما ألاحظه على الأستاذ في أول كتابه وهو الجزء الذي درسته بإهتمام ، وفحصته في دقة تعمده الإيجاز في تاريخ الجزائر قبل الإسلام ، وإغفاله حلقات هي الأصول ، وهل حاضر أمة اذا درسناه إلا نتيجة لماض لها يجب أن ندرسه لأنه أصله ، وقد رأينا جميع المؤرخين كإبن الأثير وابن خلدون والطبري يعتنون كل الإعتناء بتاريخ العرب في الجاهلية فيصورون لنا تصويرا كاملا حياتهم وأحوالهم قبل الإسلام لأن ذلك كله هو سبب تكون الشخصية العربية ، وإنطباعهم بطابع خاص تميزوا به عن غيرهم ومن لا يعرف تاريخ العرب قبل الإسلام يستعصي عليه فهم كثير من الحوادث التاريخية الكبرى في الإسلام كالصراع بين الهاشميين والأمويين في صدر الإسلام ، والحروب التي وقعت بينهما في القرن الثاني وهي حروب ووقائع أسفرت الأولى عن دولة بني أمية ، وأسفرت الثانية



عن دولة بني العباس ، وان العرب يمتازون بخصائص كالشجاعة والكرم ، والنجدة والوفاء والذكاء ، وسعة الخيال وغير ذلك من الخصائص الجسمية والعقلية والخلقية ، والبربر متصفون بكل تلك الخصائص وهي وليدة تاريخهم الطويل ، ونتيجة البيئة الطبيعية والبيئة الإجتماعية التي توالت عليهم قرونا فلا بد لمعرفة البربر في الإسلام بمعرفة تامة لتاريخهم قبل الإسلام لأنهم في الحاضر لا يتصرفون الا بعوامل ورثوها من الماضي ، ثم أن البربر لهم قبل الإسلام مجد تليد ، وصفحات ذهبية ، ودول عظمى ، وحضارة راقية ومواقف للبطولة والذب عن الأوطان لا زالت من أكبر مفاخرهم إلى هذا الزمان فلو لم يكن في جاهليتهم الا تلك المواقف لكانت أكبر سبب يحثنا على تسجيل تلك الحقبة من تاريخهم لأنها هي التي تفهمنا أسباب استعصاء البرير على العرب في الفتح الإسلامي نصف قرن كامل وهو حادث لم يقع للدولة الإسلامية في كل ما فتحت من الأقطار فكيف ومع بطولة البربر في الحروب ، وبسالتهم في النزال حضارتهم العظمى ودولهم الكبرى التي وصلت على ما تصل إليه الأمم في ذلك الزمان من المدنية والرقي ، ان تفصيل القول في هذه الحلقات واجب ولو كان الأستاذ لا يريد بكتابه الا تاريخ الجزائر في الإسلام فكيف وقد سماه تاريخ الجزائر العام ، ثم أنه قد واعدنا في مقدمته أن يجلو علينا شخصيات الجزائر ويبين لنا آثارها فيه فمر مر الكرام على الشخصيات الجزائرية العظيمة قبل الإسلام سيما في ميدان السياسة والنضال كمصينيسا وصيفاقس ومصيبسا ويوغورطه ، ويوبا الأول ، وعرابيون وقرموس ، وجلدون ، هذه الأقطاب التي شرفت الجزائر في

الدنيا القديمة ، ومثلت نبوغه وعبقريته وأجلت إباءه وبطولته ، ان يوغورطه قد كتب فيه حتى الأوروبيون فنوهوا ببطولته وجعلوا منه للزمن مثلا أعلى في الشجاعة والدهاء ، والاقدام ونرى الأستاذ لا يلم الا المامة صغيرة بمصينسا ثم يهمل الشخصيات الأخرى فلا يزيد على إثبات أسمائها في جدول جاف ما هو بالجدول للناشئة التي يجب أن نراعيها في التأليف واذا كان الأستاذ يرجىء تاريخ هذه الشخصيات إلى الجزء الذي يخصصه للجندية والحرب فانه لم يحسن صنعا ببتر هذه الفصول من مواطنها ، وتأخيره هذه الأبواب عن أماكنها ، فان أعمال هذه الشخصيات حوادث تاريخية يجب أن تتسلسل ، وهي نتيجة لوقائع في ذلك الدهر يجب أن تتوالى ، أما قطعها فازالة لحياتها وتعطيل لما بترت منه لأنها حياته وهل جمال العهد القديم الا هذه الشخصيات ، واذا كان تاريخ العرب قبل الإسلام جل حروبه في العصبيات الضيقة وفي الفتن الداخلية فوجد من المؤرخين من فصله وبينه وأعطاه حقه وفيه كثير مما يود أصحابه أن يموت فلماذا لا نحتفل بتاريخ الجزائر قبل الإسلام وجله مما يود أصحابه أن يحيا ، واذا وجدنا هنات فالتاريخ للعظة فيجب إثباتها للإعتبار يجب على أدبائنا أن يعتنوا بهذه الحقبة من التاريخ ففيها من قصص الوطنية والبطولة ما يجب تقديمه للناشئة ، وفيها من المادة الغزيرة ما يخلق الشخصية ، وقد رأينا الأوروبيين يعتنون بمواقف البطولة في تاريخهم فيصوغون منها قصصا للأطفال ، ومقالات للشباب ، وروايات للمسرح فينوهون بمفاخرهم بكل لسان ، ويرسمونها مثلا أعلى لشبابهم بمختلف الوسائل ، فترى أممهم تعيش في تاريخها في كل أدوارها وترى



أبطالهم أحياء في نفوسهم يوجهونهم في السلوك ويرسمون لهم الطريق الذي سلكوه قبل فوصلوا ، أما تاريخ الجزائر عموما وتاريخه قبل الاسلام خصوصا فلا يعرف الجزائري منه الا عناوين ، والمثقف الا حقائق جافة لا تخلق روحا ولا تذكى نفسا ، يا قوم !

ان التاريخ مجال الأدب الأكبر ، ومسرح الفن الأعظم ، فاغمسوا فيه أقلامكم تأتوا لنا بالأدب الرفيع ، واتجهوا إليه في القصة والرواية تقدموا إلينا الغذاء الذي يفرضه العصر علينا ، ان تاريخ الجزائر قبل الإسلام حافل بالعبقريات والأمجاد ويوم يهب الله له من يصور لنا بطولته بأسلوب فني ويتناولها بقلم أدبي تظفر مدارسنا بأحسن بيئة يعيش فيها الأبناء فتذكي فيهم وراثة الآباء .

ثم ينتقل الأستاذ إلى تاريخ البربر في صدر الإسلام ومواقفهم ضد ظلم بني أمية ، وثوراتهم على من يعاملهم بالحيف ويحيد فيهم عن عدل الإسلام ، فيظلم البربر ظلما شنيعا ، ويحكم عليهم أحكاما بعيدة عن العدل والصواب ، ويصفهم بأوصاف يستحقون غيرها ويضعهم في مرتبة يتنزهون عنها ، وينظر إليهم نظرة شزرى ولو حكم المنطق وروح الإسلام لنظر إليهم نظرة الرضى ، وأرى أن الأستاذ اعتمد كتب التاريخ القديمة في هذا الباب ، ونقل ما أثبته القدماء للبربر بدون تمحيص ونقد ، وكتابه كما قال في مقدمته «لم أجىء فيه «تاريخ الجزائر» بشيء جديد أو مبتكر حديث وإنما هو جمع وتدوين لما كنت سطرته لنفسي وجمعته من تاريخ وطني العزيز المشتت هنا وهناك !» .

ان التاريخ عموما يوجب على الإنسان أن يكون متيقظا كل

التيقظ فيه لأنه ليس بالحقائق العلمية التي يتناولها العقل فيثبتها كما هي ولكنه حوادث هي مظهر للعقائد فالإنسان ينظر إليها بعقيدته أيضا فتصورها كما تريد ، وتاريخ الدولة الإسلامية عموما سيما ما يتصل بالبربر في القرن الثاني والثالث من الهجرة قد تحكمت فيه السياسة وداخلته أهواء الساسة فصار من الأساليب في الدعاية ومن الأدوات في الهدم والبناء ، وقد كان كثير من العلماء المؤرخين بطانة للسلاطين لا يكتبون الا ما يرضي ملوكهم ، ولا يكتبون في كتبهم الا ما يتفق مع سياستهم التي تنبع أحيانا كثيرة من صبيانيتهم وأنانيتهم لا من الدين ، فترى أولئك العلماء فيهم روح الشعراء يحكمون الوجدان ويغرفون من العاطفة ، فاذا تحدثوا عن أعداء دولتهم من الممالك الإسلامية الأخرى صوروها كما يملى حقدهم فيجردونها من الحسنات ولا يثبتون لها الا السيئات وتراهم ينفخون في الحصاة من السيئة حتى تصير جبلا أشم ، ويغطون الحسنات الكبرى التي تملأ الدنيا بجمالها وأريجها حتى تصير رائحة ضعيفة لا تشم .

أما اذا تحدثوا عن ملوكهم فهم الأطهار والعظماء ، وهم خلفاء الأنبياء ، وهم الملائكة في البسيطة ، وان كانت درجاتهم في أخلاق الإسلام وطهره بسيطة وكان الملوك اذا أعجزهم منافس فلم يستطيعوا قتله بالسيف ، في الأرض حاولوا قتله بالدعاية في القلوب ، فيشيعون عنه الأراجيف ، ويلصقون به التهم ويصورونه في هيئة تنفر عنه القلوب ، فتنتشر أكاذيبهم فيلتقطها الرواة والمؤرخون وتصبح مع الزمان حقائق راسخة وشهادات صادقة سيما اذا جاءت من



مؤرخ يعتقد فيه الصدق ووصلت من طريق يثق به الناس ، وقد تهزم دولة دولة أخرى فلا تكتفي بابادتها من الوجود تعمد الى ما يزيلها من القلوب أيضا فتلتصق بها كل نكراء ، وتطلق فيها ألسنتها فتلطخها بكل سوء ، وألسنة الملوك هم العلماء والشعراء ، فترى العلماء يستخدمون حتى الدين في هذه الأغراض فلا يتورعون من وضع الأحاديث التي تؤيد مقاصدهم وتأويل الآيات القرآنية تأويلا باطلا يثبت دعاويهم .

وهذا هو سبب وجود كثير من الأحاديث في السنة في بعض الفرق وشيوع كثير من التفاسير في القرآن تتعلق بهجو بعض المذاهب .

وقد رأينا في زمننا هذا أن الحلفاء لما هزموا ألمانيا في الحرب الأخيرة كيف شرعوا فيها ألسنتهم فصوروها لكل قوم بما يقتلها في قلوبهم فقالوا عنها لنا : انها مستعمرة متجبرة ، وأنها تريد الإبتزاز والإبتلاع وإنها عدوة الأديان سيما دين الإسلام ، وأنها متعصبة للعرق الجرماني ، وأن العرب عندها تحت مرتبة اليهود إلى غير ذلك مما ينفر القلوب الإسلامية عنها ، أماهم فاخواننا الأشقاء خلقوا لحياطتنا وإنعاشنا فهم الغمام المبارك لروضنا وهم أصدقاء الإسلام ، وهم سلمنا الى السعادة .

ان العصر الحديث وليد العصر القديم فعلى حسبه كان في كل النواحي وعلى أساليبه هو في أنواع الحروب وان اختلفت الأداة وتغير المظهر ، والنفس البشرية واحدة في كل العصور وان اختلفت أزياؤها وتعددت ألوانها ، وقد إنفصل المغرب عن بني أمية وبني

العباس في القرن الثاني من الهجرة فتأسست فيه دول عظام لم يستطع الأمويون والعباسيون ازالتها بالسيف فأطلقوا فيها ألسنتهم الكاذبة ، وقد عهدوا إلى المزاج الديني الذي يسود الأقطار الإسلامية في ذلك الزمان سيما المغرب فاستغلوه في دعايتهم فوضعوا الأحاديث الكاذبة والروايات المزورة فصوروا تلك الدول طوائف مارقة من الدين وأحزابا شاذة عن جماعة المسلمين وظلوا قرونا وهم يلوكون هذه الدعاية ويواصلون هذه الحرب حتى رسخت أكاذيبهم فصار الرواة ينقلونها على أنها حق لا ريب فيه ثم إن الأمويين والعباسيين لم يكتفوا بطعن الدول المغربية التي انفصلت عنهم في سياستها فعمدوا إلى جنسها يحطون منه بالترهات فأشاعوا روايات كثيرة تحتقر البربر وتهجو المغرب وتراه شر النواحي .

روى ابن عبد الحكم وهو من المشارقة في تاريخه فتوح مصر والمغرب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : «خلقت الدنيا على خمس صور ، على صورة الطير برأسه وصدره وجناحيه وذنبه ، فالرأس مكة والمدينة واليمن ، والصدر الشام ومصر والجناح الأيمن العراق ، والجناح الأيسر السند ، والذنب من ذات الحمام إلى مغرب الشمس وشر ما في الطير الذنب» وأنا أنزه عبد الله بن عمرو بن العاص عن هذه الأحاديث انها من أكاذيب السياسة أجرتها على لسانه وقد رأيناهم لم يتنزهوا عن الكذب على الرسول ﷺ فكيف يتنزهون عن الكذب على الصالحين ، ان عبد الله بن عمرو من العبادلة الذين شاركوا في فتح المغرب ، ورغبوا عثمان في فتحه لأنهم رأوه قوة كبرى للإسلام ، وجناحا أعظم للدولة الإسلامية ، وساعدا أشد للإسلام والمسلمين .



وبعد فان التاريخ الإسلامي قد كتب جانب كبير منه تحت نظر الملوك فألف على هواهم فيجب علينا أن نتيقظ كل التيقظ في دراسته فليس كل ما ورد فيه صحيحا ، وقد زالت الأسباب السياسية التي تحجب في القديم عيون العلماء أن ترى الحقائق ، فمن سوء الرأي أن نسلك سبيلهم فنظلم الأبرياء ونقلدهم فيما ألصقوا للبربر من تهم شنيعة ، ان المشارقة قديما اذا عصفت بهم العصبية فثلبوا البربر لأنهم يرونهم بعداء واذا فعل ذلك البربر مع غيرهم فلا يجوز لنا نحن في هذا الزمان في المغرب لأن البربر أجدادنا وآباؤنا والعرب أجدادنا وآباؤنا فمجد كل منهما لنا مجد وتاريخ كل فريق منهما تاريخنا ، وقد امتزج الدم العربي والحمد لله في المغرب بالدم البربري فتوحد وأصبحت مدن المغرب كلها مزيجا من الدم العربي والدم البربري ، والذين يدعون من أصحاب المدن أنهم عرب أقحاح أو بربر خلص جهلاء أغبياء لا يعرفون الحقائق ، انه لم يعد البربري القح الا في الجبال النائية ، والعربي القح الا في أعماق الصحارى ، أما أهل المدن كلهم – والمثقفون والكتاب منهم – فعرب وبربر فعار أن يتعصب أحدهم على فريق وهو أصله ومعدنه ، وقد رأيت الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي في كتابه يتأثر بتلك الدعاية المغرضة التي شرعت ضد البربر لما انفصلوا عن الأمويين والعباسيين فأسسوا دولهم الكبرى ، وينظر إليهم بنظرة القدماء التي خلقتها الأنانية لا الدين ، ويحكم عليهم بأحكامهم التي أرسلها التعصب للجنس والنفس لا للإسلام فيظلم البربر بوصفهم بالشذوذ عن الصواب ويورد لنا باب ثورة البربر على الدول التي جارت عليهم مبهما غامضا ليسي فيه واضحا ، الا مواقف

البربر في الثورة أما الأسباب الداعية إليها من الحيف والظلم فأجلها ونفسية الأمويين التي استدعت الثورة في المشرق والمغرب فلم يشر اليها الا إشارة خفيفة ونحن سنشرح تلك الأسباب ونبين العلل الحقيقية لثورات البربر تقريرا للحق ، وانصافا للمظلوم ، واجلاء لفصول لا زالت غامضة في تاريخ المغرب .

(1) المصدر : البصائر
التاريخ : الموافق 1 أبريل 1955 م من العدد 312



## الشهيدة[1]
## مأساة ميزاب

خرجت فاطمة من المسجد مع شروق الشمس وكأن الفجر الذي يسبقها قد طلع في قلبها من درس الأستاذ لا في الأفق .
وكان درس التفسير قد انتهى وخرجت إلى بيتها ، ولكنها تشعر بصوت الأستاذ يدوي في أعماقها ، وبروحه تسري في عروقها ، لأن درسه ليس كلاما يصدر من شفتيه فيتبدد في الآذان ، ولكنه قطع من روحه يغرسها في النفوس كما تغرس البذور ، فيكون أول غيابها أول عملها في التكين في قرارة القلوب وصبغها النفوس بألوانها كما تصبغ تلك البذور علي الأرض فنون الخمائل والجنات .

وكانت فاطمة تسعى برجليها ولكن قلبها في المسجد ، كأنه قد انفصل عنها فأثر المسجد جثمانا يعيش فيه أو كأنه قد نتقل إليه المسجد فعاش فيه لا يشعر بغيره كما يعيش القلب في خيال الحبيب اذا أعوزته حقيقته فعاش في نور ذكراه .

وكانت فاطمة تعتد بالمسجد وتدرك خطره في المجتمع ، وتعتقد أن آخر هذه الأمة لا يصلح الا بما صلح به أولها ، وان الأمة التي أنارت العالم بالإسلام في عهد المصطفى نبعت من المسجد الذي كان كلية عظيمة تولاها فيها بالتربية رسولنا الأعظم عليه السلام فملكت الدنيا وان المسجد في الإسلام خلق بمحراب ومنبر كما خلق الإنسان

(1) وقعت هذه المأساة التي تقطع قلوب الجلاميد في الليلة الرابعة من شهر ديسمبر في السنة الماضية في بلدة القرارة بوادي ميزاب .

بيدين لا يؤدي وظيفته في المجتمع الا بهما معا ، وان المدينة التي ليس لها من منبر العلم بجانب المحراب رجلها الثانية لا تكون الا عرجاء تتكاءدها التلال فتقف ، وتميل بها العواصف فتسقط .

وكانت ترى أن رسولنا مربي الأمة الأعظم عليه السلام إنما بنى منبره من جذوع النخل ليعلم أمته أنه أصل المدنية الذي تقوم عليه ، وأنها كالشجرة لا تخضر وتعلو إلى السماء وتؤتي ثمارها الا اذا كان لها من منبرها الذي يمدها بحياة العلم جذعها الخشبي الذي تقوم عليه .

وكانت ترى أن المسجد لا يكون له معناه الا بإتجاه العيون والقلوب كل يوم إلى المنبر في مجالس الدرس مع إتجاهها إلى المحراب في وقت الصلاة ، وأن على كل مسلم أن يؤم المسجد ليقوم أيضا مع الصلاة التي تنهى عن الفحشاء بالعبادة الكبرى في مجالس الوعظ بإصغائه إلى الدرس الذي ينقي النفوس من الفساد الذي ينزع بها إلى الفحشاء .

وكانت تقول لصواحبها : ان منبر الدرس في المسجد حبل الوريد للأمة هو وحده يربطها بالحياة فلذلك يعمد إليه المستعمر المغير فيهده كما يعمد بالنصل إلى وريد الشاة في عنقها فيقطع اذا أريد ذبحها ، وأن المسلم لا يكمل ايمانه الا اذا كان غريزة فيه حياطة مسجده والفناء دونه كما يحوط من قبضة الأعداء عنقه مصدر حياته .

وكانت فاطمة قد نشأت على حب المسجد ترى فيه غذاء ضروريا لها من نور الصلاة الذي تزدهر به الروح والنفس ، ونور الدروس الذي تحي به النفس والعقل .

وكان هذا الهيام بالمسجد غريزة فيها أنبتها المجتمع الذي يقوم على



المسجد ويراه أساسه في كل نواحيه ، وغذتها أمها التي كانت لها مسجدا تولاها بالتربية وإنشائها على الخلق العظيم .

وكانت قاصرة في بيتها تعمل جاهدة في ادارته وتوفير الهناء فيه . وكانت ككل نساء ميزاب قد صير المسجد عقيدة راسخة فيهن : أن اختفاءهن في البيوت إختفاء عروق الشجر في الثرى ، فهن للمجتمع مصدر حياته وسبب ازدهاره ، فتراهن في إسعاد الأسرة يتحملن كل شقاء ويستعذبن كل مرارة كما تستعذب عروق الشجرة الحمأة التي تنغمس فيها لأنها تعيش منها في جمال الربيع الذي يكسو فروعها .

وكان الضمير الديني الذي ورثته من أمها وفتحه المسجد يصرفها في أعمالها فلا تقعد عن حق مخلوق يجب عليها ، وكانت بالنية الحسنة ترى في كل أعمالها معنى الصلاة فتنهل منها قرة عينها .

وكانت فقيرة قد تأيمت من زوجها ، ولكنها ككل أفراد المجتمع الميزابي المتشبع بالخلق الإسلامي ، يكون إنطفاء اليد عند أحدهم من نضارها إشتمالا لعروقه بالنشاط في العمل وقلبه بالأمل والطموح ، ففجرت بنشاطها وبراعتها في النسج ينبوعا للرزق عاشت به في كفاية . وكانت في قلب الدجى اذا عكفت النجوم في السماء على حياكة الفجر عكفت هي على نولها دائبة مجاهدة تعتقد أن الإستعمار الأكبر ليس هو إحتلال الكافرين ، لأراضينا بجيوشهم ، ولكن إحتلال أجسامنا ببضائعهم ، وأن حرب الإستعمار الذي ينفجر عليه «كالديدتي» فيهلك هو إستقلال الأمة في إقتصادها ، وأن القلاع التي تقتلع القلاع إنما هي مصانعنا التي تغمر أسواقنا بالبضائع فتهزم المستعمر في بضاعته وترغم الذباب على الطيران إلى أعشاشه لأنه لا يجد عسلا يقع عليه .

وكانت تحث صواحبها على العمل وتنفخ روحها في الفتيات ليقبلن عليها فيأخذن عنها براعتها في نسج الحلل والزرابي . وكانت تقول لهن : انه ما من مسلم يتقن صناعة فيسد بها حاجة في أمته فهو مجاهد يسد ثغراً خطيراً من ثغور الإسلام . وأن المرأة التي تقع ميتة وصيحتها بيدها كالبطل الذي يقع في الجهاد وسيفه بيده فهي شهيدة مثله في المعركة التي تثخن فيها في عدو الإسلام بالفقر ، وان علم الرجل أن زوجه لها من صناعة تتقنها معدنا للرزق تعول به نفسها إذاً فقد أكبر حافز له على الاقدام في نصر دينه وأمته لا ينفذ أي وجل وتردد إليه ، فهي مجاهدة فيه بهذه الروح التي نفختها في كيانه .

وكانت تعتقد أن الأمة ما لم تلبس من نتاج أبنائها فهي بادئة السوءة في أعين الأمم ، تزور عنها كل الوجوه ، وتحتقرها كل القلوب ، فتبادر إلى منسجها مبادرة الحر الغيور إلى ستر عورته عن العيون .

وكانت لا تغادر بيتها الا في أيام الجمع لزيارة أرحامها ، أو في أفراح الأصدقاء أو أتراحهم ، فتطوى منسجها فتبادر لمشاركتهم في العواطف . وكان عمها يعرج عليها في كل صباح لقضاء شؤونها من الأسواق وقطف الثمار من بستانها . وكان صواحبها اذا متع الضحى يزرنها فيجلسن حول نولها وفي أيديهن صوفهن يغزلنه أو الابرة يخطن بها فتأخذ معهن فيما سمعت في درس اليوم ، يتذاكرن الأنوار التي ينبع بها درس التفسير في المسجد في كل صباح ودرس الأخلاق في كل مساء .



وكن يرين شيخ المسجد «أفلح» ذلك الرجل الإلهي ! نعمة من الله عليهن في الأرض بجانب نعمته عليهن في شمس السماء ، ويشعرن به يسرج في أعماقهن بعد الغروب فجرا من درسه يعشن في أنواره إلى الصباح ، ويطلع فيهن مع الغلس من درس التفسير شمسا باهرة قبل الشروق ، فهن به في أنوار دائمة لا تنطفى ، وهن به في سبيل وضاح لا تطوقه ظلمة تزيع بها الخطى .

وكانت تقول لصواحبها اذا أخذن في إخلاص افلح لدينه وجهاده في سبيل أمته ، ورأت اشفاقهن عليه لما يتجرع من مرارة المفسدين وأعداء الدين : ان حياة الأمم من فناء علمائها . فلن تحيي إلا بأرواحهم التي يضحون بها في نهاضها . وأن الأمم لن تتوج بأنواع المجد والحياة الا بتتوج عالمائها بشيبهم في الشباب مما يتجرعون في سبيلها من أهوال الجهاد . ان العلماء خلفاء الأنبياء ، في التضحية بنفوسهم في نصرة الدين ، وأنهم لن يذوقوا نصرا ويظفروا بدنيا العز الواسعة الا بعد أن يلزم أعداء الدين في دنيا من النكبات ضيقة مظلمة تموج بالأفاعي كغار ثور ، وأن العالم الذي يفهم حق الأمة عليه مواعظ يهينم بها من زاويته ، ثم ينكمش في الأنانية في بيته ، ويرجو أن يهزم أعداء أمته بمحاولته ، إنما هو العجوز التي تهدد اللصوص العارمة في بيتها من تحت لحافها .

وكانت فاطمة تقول : ان على العلماء صلاح هذه الأمة وقيادتها في الليالي ، وليس بعالم من لا يكون لحث لسانه على التضحية شرح له من تقدمه للصفوف في الزعازع . وليس برجل من لا يكون له مع فكره المنزع بمعارفه نفس عملية تشتعل بنشاطها وشجاعتها

واخلاصها تدفعه إلى المعامع في يوم الزلازل فيخوضها .

وكانت تقول لصواحبها : ان العلماء غيث الأمة فهم سبب حياتها ما اتحدوا وتعاونوا وكانوا جدولا صافيا من صفاء نفوسهم من أدناسها ، وأشراقها من تحابهم في الله وتواددهم في الجهاد . أما اذا انقبلوا غديرا آجنا يموج بالسواد من تحاسدهم وتناكرهم فهم الحمأة النتنة لا تنتج للامة الا الأدواء التي تهلكها . انه ليس كتحاسد علماء الأمة ديناميت فظيع ينفجر في أساسها فتهدم والحسد اذا إندلع في قلب العالم حطمه في أمته كما يحطم الديناميت . اذا اندلع في قلب القنبلة فيذريها هباء في الجو . والذي ينشب أظافره من فرط حسده في أخيه وهو منه ، إنما يلطم بعضه كما تلطم النائحة في ثكلها ، نادبا الجنة التي تكلها من صفحة أعماله ، ونظرة الإجلال من الأمة التي لا ترنو إليه الا بالمقت والإحتقار .

وكانت تقول : ان حسد العلماء ، وهو داء الأمة ، لا يعشش الا في قلوب الخاملين الذين لا ينطوون على نفوس عملية تفيض برجولتها فيحققون بها آمالهم . وذو النفس العملية من العلماء هو وحده النعمة الكبرى على الأمة لأنه قوتها التي تندفع بها إلى المعالي . أما الذي يمشي برأسه باتخاذ البرامج النظرية مع إطلاق لسانه بالكلام وقبض يده عن العمل ، فهو عود الثقاب الذي يمشي برأسه على العلبة اذا زند لا يلد للامة إلا النيران .

وكانت تقول لصواحبها إن حسد العلماء وحده، هو الظلام البهيم الذي يختم على بصائرهم فلا يرون فك السباع الذي أمسوا بين أنيابه .



وتناطح الكباش في المراعي الخصيبة اذا كان فيه مسحة من البطولة ، فتناطحهم في المجزرة ليس فيه شيء من العقل . وانه لا أحمق من الجراد الذي يتصادم في القدر التي تغلي به ليزدرد إلا علماء الأمة اذا تصادموا في النيران التي تشب عليهم ليزدردوا .

آه آه ! أنت أنت أيها البحر ! يا من كنت للسفينة مطيتها ، هل انقلبت هلاكها فصرت شيعا من الأمواج تتناطح الا لما شبت فيك عاصفة كحسد العلماء ؟!

اللهم أجعل علماء أمتنا الإسلامية كأصابع اليد ، هي قبضة واحدة متحدة على الأعداء لا تتحاسد وأن اختلفت في حجمها !

– 2 –

وكانت فاطمة خيرة ذكية تعتد بشخصيتها وتدرك خطر المرأة في المجتمع ، وكانت تقول لصواحبها : ان عروق الأمة التي تكون على حسبها دائما هي المرأة والمرأة كما تورث أبناءها قسمات وجهها تورثهم أخلاقا من نفسها كتلك القسمات لا تزول ، والطفل وان نقحته المدرسة فنزل منها ماء الغمام من صفائه أنزاه اذا كانت أمه زجاجا كدرا يبدو إلا في لونها ؟؟ و الرجل لا يديره في الحياة الا العقائد التي انسكبت في أعماقه مع الأغاني من المرأة وهي أم تهدهده في المهد ، والتي تستقر فيه مع العطر وهي زوجة تسامره على الوساد .

(1) المصدر : البصائر العدد 20
يوم الاثنين 21 ربيع الأول 1367 هـ 2 فيفري 1948

ومصلح الأمة وان أوتى بلاغة الدنيا في إرشاده ، ودهاء الأنس والجن في محاولته ، لن يبلغ مأربا اذا كان الوساد حربا عليه ، والأمم لا تهزم أعداءها الا بمعملين احدهما المرأة الصالحة التي تصنع لها أبطالها !.

وكانت فاطمة في هذا اليوم تنتظر مجيء عمها ليقطف لها حاجتها من البقول من بستانها ، وارتفع الضحى وأسرع النهار في مروره كان صرير صيصتها في النول كان له حداء مزري صيره فخذ في مراجله وكانت السماء يقزع السحاب قد لبست جلد النمر للشمس فهي في إختفاء وظهور فعل المحارب مع قرنه وكانت تمزق في سيرها مائلة لمغربها كان زمهرير يناير قد آذاها بصفائه فأسرعت إلى خدرها لتستكن فيه وانتصف النهار ووقفت الشمس في كبد السماء وقفة الوداع لتزول فلم يأت عمها . فطوت نولها فنهضت لتقطف بنفسها البقول من بستانها ، وكان من المدينة غير بعيد ، والأمن ضارب رواقه على البوادي يكف الدين كل يد أن تمتد بالعدوان على مسلم والمرأة محترمة مصونة هي من غيرة كل رجل في الوادي على كل إمرأة فيه سوداء العين بين أجفانها تقيه من كل الافذاء وكانت المرأة اذا مشت في شوارع ميزاب لا تخوض إلا في العيون المطرقة الى الأرض أمامها من فرط الحياء وتمكن الدين وكان الرجل يتغرب طويلا وهو في إطمئنانه على حرمه كإطمئنانه على قلبه لأنها بين ضلوع من حصانتها وصلاح المجتمع يقيها من كل سوء فخرجت فاطمة ، إلى البستان في جلبابها وفي درع من أمان المرأة التي ترى نفسها من الوادي في حرم لا تمتد إليها يد بأذاة لو كانت وحيدة في الفلاة ،



وأدبر النهار وامتدت أيدي الليل إلى الشمس لتطفئها فلم ترجع فاطمة إلى بيتها . فخيم ليل من الحيرة على أمها العجوز فأسرعت الى البستان فنقبت عنها في أقطاره فلم تجدها فشاع في المدينة أن امرأة خرجت الى الغابة فلم ترجع إلى دارها ولا يعلم أهلها مكانها ! فادلهمت القلوب بالحيرة ، وارتعشت النفوس بالقلق ، وبلغ الخبر إلى عميد المجلس البلدي فأمر بالطبل أن يقرع . وكان ذلك في ميزاب علامة على حدوث أمر جلل ، وإعلان للمدينة لتسارع الى النجدة وتصبح تحت تصرف المجلس البلدي ودمدم الطبل في أنحاء القراراة . وكانت دقاته دقات القلب في ساعة الخطر لتستعد الأعضاء فثار الناس من متاجرهم ، وسال الفتيان من مدارسهم ، وتجمع الشباب وزخر فناء دار الندوة بالمدينة مغيثة تنتظر أوامر المجلس البلدي لتتجه كلها ساعدا واحدا لدرء الخطر . وتهامست الشفاه تبسمل بالحيرة لإختفاء المسكينة . وكان الطبل يقرع في عهد الناس للخدمات العامة كبناء السدود ، ومكافحة السيول الطاغية ، أو اطفاء الحرائق الناشبة . ولكن لم يكن لمثل هذا الحدث اذ لم يعهد ميزاب في تاريخه كله أن تمتد يد إلى إمرأة بسوء . وكان عميد المجلس البلدي أشد الناس حيرة وأكثرهم قلقا لأنه يعلم أن أعداء الإصلاح قد قض مضاجعهم نهضة الأمة وترعرع الاصلاح فصاروا يتربصون بها الدوائر ، وأنه لا يبعد أن يكون أعداء النهضة قد دبروا مكائدهم فلامسوا زناد المدينة بامتداد أيديهم إلى امرأة بسوء لتنفجر فيجدوا سبيلا عليها . وكان يعلم أن الأشرار من عبيد الفكر لا يتنزهون في اشباع نذالتهم حتى عن إقتلاع الصوامع وهدم المحاريب ، وان الذباب

الذي تخلق في مزابل الفساد لا يقع الا على العيون ، وان الأوغاذ من مفسدي الأمة اذا أعياهم مصلحوها ببطولتهم عمدوا إلى نسائهم فاشتفوا منها ، وان الجبان الرعديد الذي يخلع قلبه سيف البطل فلا يستطيع منه دنوا ليصب نقمته على جفنه اذا ظفر به فيطأ عليه ! ونظم عميد المجلس فتيان المدينة كتائب فارسلها في الغابة وفي ضواحي المدينة ليفتشوا عن الفقيدة .

وكانت الشمس قد غربت فامست المدينة قلبا مدلها بالحيرة من ظلام الليل ، وبرقت النجوم باحثة مع الفتيان عن المسكينة كأنها عيون السماء ، وتغلغل الفتيان في الغابة وبين الزروع منقبين وفي أيديهم المشاعل تتأجج فتصدع الظلام كأنهم قبوسها من غضبتهم للعرض ، وكانوا وهم يمرقون في الفاف الغابة كالبرق باحثين كأنهم يمشون بقلوبهم المتحمسة لا بالأرجل ! وفي ركن من الغابة رأى أحد الفتيان نارا تلوح وتختفي فظنها جذوة لبعض الأعراب يصطلونها فانصرف عنها ، ولكنه بدا له أن يقصدها ليسأل لعله يجد عندهم خبرا ، فوقف الفتى مشدوها أمام النار المشتعلة !! لقد رأى أمرا فظيعا يصدع الأكباد ! فجن جنونه فتلقف بندقيته من عاتقه فصرخ بها صرخة الرجل في الموقف الرهيب . فسمعت كتائب الشباب صرخة البارود فهرعوا الى المكان ، فوجدوا فاطمة قتيلة في خندق وقد انشق رأسها وانتثر دماغها كتلة بجانبها ، وقطعت يدها وثديها ومثل بها شر تمثيل وأشعلت فيها النيران ، ورجعوا الى المدينة وألسنة النيران المندلعة في الشهيدة تخطب فيهم خطبا بليغة في الوطنية لا يخبو أوارها .



## الميكدة[1]

قال يزيد بن فندين لعصابته وقد اجتمعوا في ناديهم السري في مكان خفي في ضاحية تاهرت : أف لكم معشر الصحاب انكم لا تغارون على أنفسكم فتبوؤونها ما يليق بها من مكانة في الدولة ان هذا الرجل الذي يدعي أنه هو الامام لا يزيدنا الا إقصاء عن الوظائف التي خلقنا لها انه سيحرم عليكم حتى نسيم تاهرت وشمسها فلا تحظون بها اذا دام في عرش الامامة يصرف الأمور ، ان دوامه دوام الحرمان لكم مما تصبون اليه من عيشة رغيدة وسلطان كبير في دولتكم .

ان كلا منكم على كفاءة أكثر من كفاءة هؤلاء الصبيان الذين سلبهم الثغور وهذه الزعانف التي يتكل عليها في المهمات اذا أقصاكم عن مراتب أنتم أولى بها ؟! انه يعرف نفاذنا في الإدرك وصلابتنا في الحق وأننا سندرك أخطاءه في الادارة فننتقد عليه هفواته فأبعدنا عن الميادين ان الضعيف لا يوثر الا الضعفاء أمثاله لكي لا يبدو حصاة بين الجبال فلو أن الكواكب خيرت ما اختارت طلوع الشمس التي تحجبها عن الأنظار انكم خلاصة الدولة ، ولبابها فيجب أن تؤول الأمور إليكم لتصرفوها بدرايتكم وكفايتكم انكم اذا لم تعملوا لانصاف نفوسكم فانصفوا المسلمين الذين أقيم عليهم ولاة لا يليقون حتى لرعي الغنم واعملوا لحياطة دولتكم من

(1) المصدر : البصائر عدد 250 ، ديسمبر ، 1953 .

المكروه الذي يصيبها اذا دام اقصاء الأكفاء ، وتقريب الضعفاء ان هذه الدولة نتيجة آبائكم قامت بسواعدهم ونشأت بجهادهم وتضحياتهم لا بجهاد هذا الفارسي عبد الرحمن بن رستم لتنتقل ارثا الى أبنائه وتحرمون أنتم خيراتها وبهجتها ان عبد الوهاب يا قوم ليعتز بفارسيته ويحتقركم معشر البربر ويراكم سلما الى أغراضه ليس لكم إلا وطء نعاله ! فان دام فستطول المرارة التي تتجرعونها بالحرمان ان إقصاءه للأكفاء ، وازوراره عن الأقوياء أمثالكم دليل على ضعفه وعدم صلاحه لما تقلده ان عبد الوهاب لا يليق للامامة لا يليق لا يليق ، ألا ترون تقشفه في عيشه وزهده في الدينا ؟! فأين هو من نعمة بني العباس وعظمتهم بالتيجان الذهبية وبالقصور وبمظاهر النعمة التي يرفعون بها من شأن الدولة في العيون ؟! انه يباشر كل شيء من مهام الدولة بيده وهذه أثرة لا يؤيدها الدين ويراقب مراقبة دقيقة كل أمر وهذه شدة تأباها طبيعتنا معشر الأحرار ان هذا الرجل المتقشف لا يليق مظهرا لدولتكم التي بلغت أعلى ذرى الحضارة الا اذا لاق الجذع الجافي أن يكون مظهراً للشجرة الزاهرة في بحبوحة الربيع .

لقد خلع طاعتنا له فأصبح عاريا من برد الامامة منذ استبد بالأمر ولم يجعل معه جماعة يشركها في الحكم لا يقطع أمرا دونها لقد بايعناه على هذا الشرط فلما لم يف به بطلت بيعتنا له وأصبحنا أحرارا في أمرنا انكم اذا ثرتم على عبد الوهاب فلا تثورون على الامام فتوزرون ولكن على رجل من سائر الناس تخطى أعناق الأكفاء الى الأمامة وفي الدولة من هو أكثر كفاءة



منه ألا ان المسلم لا يحل له أن يتقدم الى رئاسة المسلمين وفيهم من هو أكفأ منه ان امامة عبد الوهاب باطلة باطلة وهي منكر يجب عليكم محاربته وان فيكم قوة لذلك بألسنتكم التي تضرمون بها صدور العامة حنقا عليه وان لكم في سيوفكم ما تبلغون به المرام فسكت يزيد بن فندين وقد أحمر وجهه بنيران الحقد المتأججة فيه فجعل يستعرض أصحابه ويحدق في سحناتهم ليرى أثر كلامه فيهم وهل أصابت شعلة منهم بارودا فينفجر فرفع أحد العصابة رأسه فزفر زفرات القطار اذا هم بالمسير كأن كلامه لا ينفس عنه وحده ما يجد فجعل ينفث حرارة في هذه الأنفاس الحامية ثم قال : حقا اننا لا ننال الا الخيبة اذا دام هذا الرجل اماما وحظنا من الدولة هو حظ المعتصر للصخرة لتبيض إنه يتابعنا بعين النسر فما من حركة نقوم بها في جنح الظلام ونحن نبالغ في التستر والكتمان الا كانت أنباؤها عنده قبل الفجر وما من عزيمة تدخل في المدينة لتقوض صرحه الا فراها هو وجواسيسه في وجوهنا فيأخذ حذره بجعل دائرة السوء علينا انكم لا تستطيعون عبد الوهاب اذا كان يقظا فابتغوا الفرصة فيه ، إذا نام والليل أخفى للويل و رفع آخر رأسه وكان ينكث في الأرض بعود في يده ويتخذ فيها حفرا كأنها القبور التي تفتحها أفكاره القاتلة للضحايا فقال : ان مولانا يزيد هو الامام فحرام أن تصرف الامامة عنه الى هذا الصبي وهو أكثر كفاءة منه أن عبد الوهاب هو الجدار المتين دون حظوظكم في الدولة فلابد بتهديمه وأرى أن تبعثوني إليه فأكفيكم المؤونة بهذا السيف الذي طوح بجماجم الأبطال

فاخترط سيفه فأحدث صليلا أيقظ العصابة من أحلامهم التي يرون فيها أنفسهم أولى الحول والسلطان بعد زوال عبد الوهاب فرفعوا رؤوسهم كلهم اليه فرأوه في يد صاحبهم وهو يهزه في الجو فيبرق بريقه نهرا جميلا يركبون الى غايتهم ويصل بزوارقهم الى اهدافها فصاحوا كلهم : نعم السيف ! انه الوسيلة لنصبح أولى الثورة ويكون مولانا يزيد هو الامام فابتسم يزيد لما رأى من حماسة أصحابه له وعلم أنه قد أوقد في القلوب النيران التي تنضج له الامامة ، فاستوى في مجلسه فقال : أما اذا عولتم على السيف وانبرى منكم من يريح العباد من هذا الرجل الذي قتل حظوظكم وسامكم الهوان فاقتربوا مني لأدلكم على الطريق الذي نصل به لازالته فانه من حزمه وذكائه وشجاعته في حصون لا تخترقونها الا بالوسائل البارعة فدنوا منه حتى تلاصقت ركبهم فامتدت أعناقهم اليه في لهفة لما يقول : فنفض يزيد ببصره أطراف المكان : تطلع الى وراء الجدران لعل عينا من جواسيس الامام يسترق السمع فلما اطمأن بخلو الساحة شرع يناجيهم بالمكيدة ويضع لهم الطريقة الماكرة لقتل الامام ثم وجه خطابه الى الذي تطوع بتنفيذ المكيدة فقال : أما أنت أيها البطل فاذا أرويت سيفك من دمه وأزلت العقبة الكؤود من طريقنا فأذن في المنارة لنعلم بلوغ غايتك فنهجم على العاصمة فنحتل ثغورها ونأخذ بأزمتها قبل الصباح أما أنتم أيها الصحاب فلتكونوا على إستعداد في هذا المكان في مثل هذا الوقت من الليلة المقبلة وانها الليلة الغراء تضيؤون بسيوفكم فتضيء الدينا فلا ترون الظلام بعدها .



وكان الزمن شتاء وكانت تلك الليلة عكرة كأنها برزت من سواد القلوب التي تغل بالحقد والريح تهب عاتية قارسة تصفع الوجوه كأنها سياط الطبيعة للناس كي يأووا الى منازلهم فيخلوا المكان وكانت تهز الأشجار العارية هز الحسود المستكلب كأنها تريد أن تسلخها من لحاها أيضا لأنه لا يرضيها الا أن تراها وقودا تلوكه النيران .

وكانت السماء مجللة بالسحاب الكثيف والنجوم خادرة كأن العاصفة قد صفعتها بالبرد فارتعشت ثم تغطت بالسحاب فنامت .

وكانت الساحة مغطاة بركام الثلوج البيضاء قذفتها يد الطبيعة لتبطل بها عمل الربيع فجاءت بها في بياض الشمس لتتقبلها الأرض كمايلف أعداء الوطن أفكارهم المخربة في بياض الدين لتتقبلها القلوب .

وكانت الرعود تدمدم في أنحاء السماء كأنها زمجرة أسود من الملائكة رأت من يريد بالدين شرا فأرسلت زئيرها طليعة للمعرة ثم سكتت الرعود فانهمرت الأمطار غزيرة كأن حريقا قد شب في الأرض فأرسلت عليه الملائكة سجالها لتطفئه .

وكانت تاهرت قد تلفعت في برد الليل فنامت فلا يبدو فيها الا أضواء منتشرة في بعض نواحيها للعباد الذين يتهجدون في الأسحار والعلماء الذين يسهرون مع النجوم فيصنعون للدنيا فجرها فتفرق أنصار ابن فندين الى مساكنهم فانبثوا في أنحاء المدينة الوادعة كما تتفرق الجراثيم الفتاكة من القرحة فتنبث في أنحاء الجسم السليم فضرب يزيد بن فندين بجنبه الى مضجعه وحاول

النوم ولكنه لا يطاوعه انه يفكر في احداث الليلة المقبلة ويرى الامامة تقبل عليه مرغمة بسواعد أنصاره الأشداء وطلع النهار فطال عند ابن فندين على قصره وبوده لو غربت الشمس في الضحى وكان بياضه في عينه أشد نكرا من بياض الشيب في عيون الغواني وكان يتمنى وصول الليل ويترقب طلائعه ترقب المشتاق وكان يزيد ابن فندين ذا شخصية قوية واعتداد بالنفس يريه أنه في الحياة كالزهر المشتمل على الثمار في الشجرة لا يكون الا في أعلى الغصون واذا قدر عليه أن يكون في الهامش ببعض الأمور سخط وثار وعمل في الدولة عمل الصخرة العظيمة اذا وضعت في هامش السفينة تميل بها للغرق ولا تثقلها فتستمسك في الأمواج .

وكان بأجنحة من علمه وذكائه وقوة شخصيته فطار الا أنه لم يكن ببياض الدخلة التي تجعله على روح النحلة فيقع على الزهور فيصنع لأمته حلاوتها بل كان لسواد دخلته على طبيعة الجعل تقع به أجنحته على النتن فيدحرجه لقومه .

– 2 –

وكان عبد الرحمن بن رستم إمام المسلمين في تاهرت قد ترك الأمر شورى بين سبعة من العلماء الأكفاء للامامة تأسيا بسلفه الفاروق الذي كان يحتذيه في كل أمر وكان يزيد بن فندين من أولئك السبعة فتحاماه صحابته لما يعرفون من دخلته فلم يسندوا إليه الامامة فقدموا عبد الوهاب وأعرض عنه الامام عبد الوهاب



أيضا فلم يوله وظيفة كبرى في الدولة كما يتمنى لأنه لعدم صفائه كماء البحر ملوحته تخلق الأمواج العاتية التي تغرق الأساطيل فتختل الدولة ويفسد أمر المسلمين فيقع عبد الوهاب فيما يقع فيه من أعطى عدوا يعرف حسده له سلاحا ماضيا فيقضي به عليه فثار يزيد بن فندين فشرع يبث دعاية سيئة في الإمام ويسول له حسده فيصور للعامة حسناته سيئات ويقول فيه ما تقول الجراثيم في الشمس القاتلة لها اذا أرادت أن تسخط عليها الدنيا تصفها بأنها البرص الذي يسرى بالبياض الخبيث في جلد الحسناء ولما وجد الهجو لا يجديه في إسقاط الإمام عول على المكيدة فاخترط سيفه ليغتال الامام ويلسعه لسعة العقرب القاتلة من أثناء ثوب الحرير الذي تختفي فيه .

وكان الإمام عبد الوهاب رجلا فذا في عمله ورجولته وتقواه اتخذ القرآن نورا يمتلىء به فيدفعه إلى سبيل الرشاد وطريقا يتبعه لا يحيد عنه في صغيرة ولا كبيرة فازدهرت تاهرت به ازدهارا عظيما ووضعت عن محياها نقاب البداوة وبدت في فتنتها تنافس بغداد وقرطبة وتصرف إليها العيون فرأى الناس كيف يخلق الدين اذا كان هو الامام جنة الإنسان في الأرض مع جنته في السماء وأضحت تاهرت هي عروس المغرب تخفق ؟

وكان الإمام على سعة غناه متقشفا لا يأوي إلى القصور التي تورثه القصور ولكن إلى دار بسيطة كعرين الأسد ليس فيها زخارف الغنى وبهرجة الحضارة وكان له فى جانب من داره مجلس يجلس فيه الوفود وأصحاب الحاجات في كل مساء اذا خرج من

المسجد الذي كان هودار الامامة تفض فيه كل المشاكل الكبرى .

وكانت تاهرت في الأصيل والناس يفورون في أشغالهم ويستبقون إلى اغتنام ما تبقى من يوم الشتاء القصير الذي يضطرب في الثلوج التي تكسر الشوارع المرصوفة وفي السحب كالوليد في القماط .

وبينما الإمام يتهيأ للذهاب الى المسجد ليصلي بالناس طرق بابه ففتح فاذا رجلان يحملان صندوقا كبيرا فانبرى إليه أحدهما فقال : أيها الإمام ان صاحبي هذا ينازعني في هذا الصندوق ويدعيه وهو لي وقد رأينا أن نضعه عندك إلى الصباح لأحضر شهودي ويحضر شهوده فنظر الامام اليهما فعرف من مظهرهما نفسهما فأشار عليهما بادخال الصندوق الى بيت عبادته ونومه وكانت محل ودائع الناس لشدة محافظته عليها ورأى الإمام رفقهما بالصندوق وهما يحملانه فلما وضعاه وانصرفا حدق فيه فوجد قفله من الداخل فتركه فانصرف إلى المسجد .

وكان الامام فيه روح النجم اذا أقبل الليل أطلعه لأعماله فيبتدىء أعمالا يقضي فيها غالب الليل لا يفتر ولا يشعر بالونى وكانت المطالعة ودراسة الكتب هي مايبتدىء به عمل الدجى يسرع الى مكتبه اذا انتقل من المسجد ورتب حرس المدينة في أماكنهم بسعار متأجج لا يطفئه الا التهام الكتب ساعات طويلة من ليله فأسرج الامام مصباحه في تلك الليلة بعد أن لاحظ الصندوق الموضوع أمامه فتيقن أن فيه شيئا فأخذ في قراءته منغمسا في عالم كتابه لا يكاد يشعر بشيء ولما انتهى من قراءته وضع غطاء على



المصباح يمنع تأجج النور ولا يطفئه فيظلم المكان ثم بسط فراشه ووضع شيئا يمثل شكل النائم وتنفسه في نومه فغطاه بلحاف أبيض فقام الى مصلاه في جانب من حجرته فأخذ في التهجد في حركة خفيفة لا تسمع وسلاحه بجانبه فانقطعت الحركة في حجرة الإمام وخفتت الأصوات فلم يعد هناك شيء يسري في سكون الليل الا الأنفاس الصادرة من وساد الفراش أو الأنوار الباهتة التي يبعثها المصباح المغطى فيجعل جو الحجرة جو المرتاب يكسف اليقين في خاطره شك راجح واستمر الامام في صلاته وكان يلاحظ الصندوق الموضوع في ركن الحجرة قريبا من السرير فسمع فيه حس قفل يفتح ثم رأى بابه يرتفع في هدوء فبرز منه رجل شديد الأسر شاكي السلاح تلتهب عيناه التهاب النمر المسعور اذا رصد فريسته فوقف في الصندوق وقفة المرتاب في قبره يوم النشور ، عليه سيما الحيرة والوجل مما يقدم عليه فنظر إلى سرير الإمام فرآه منتفخا والأنفاس تتصاعد منه فلم يشك أنه الامام يغط في نومه فحمل عليه فقدَّما في الفراش بضربة حانقة من سيفه فتنهد تنهد الارتياح فنظر لينتشى بالدماء المنهمرة من فريسته ويراها في إضطرابها وهي تسلم الروح فوجد أن الذي ضربه بسيفه قربة منفوخة لم يشد وكاؤها فصارت تتنفس تحت اللحاف فأضاء له المكان فجأة لما رفع الغطاء عن المصباح فرأى الامام في هدوئه وثباته وسيفه بيده يسيل بالموت فقرأ فيه حتفه فانتفض انتفاضة الشاة المقيدة تحت الجزار فمات قبل أن يموت فقده الامام نصفين ثم زمله في ثيابه فرده إلى الصندوق .

وكان ابن فندين وحزبه قد باتوا ليلتهم في ضاحية المدينة في العدة والسلاح وكانوا يرهفون الآذان ليسمعوا صاحبهم يؤذن بالبشرى في الصومعة فطال إنتظارهم حتى طلع الفجر فرأو أنواره أكفانا لأملهم الذي بات يداعبهم طول الليل فتفرقوا مع النجوم التي بددها ضوء النهار فلما أضحى اليوم رجع الرجلان إلى الإمام فوجداه على الهدوء الذي استقبلهما به أول مرة فأخبراه بإصطلاحهما وسألاه أن يرد لهما صندوقهما فأشار إلى المكان الذي وضعاه فيه فحملاه وفي النادي السري فتح ابن فندين الصندوق فوجد صاحبه فيه قتيلا وبعد ذلك وقع هو قتيلا بضربة من أفلح بن عبد الوهاب في المعركة التي أنشبها هو وحزبه ليستولوا على الامامة فكانوا وقودها فتنظفت تاهرت منهم فأضحت شجرة مخضرة ليس فيها الا الزهور والثمار قد خلت من الحطب الذي يعوق نموها ويجلب إليها الفؤوس وعلم ابن فندين وهو يتشحط في دمائه أن الحسود لا يسود وأن الذي يختل الأصفياء لا يزيد على خلق الحفر التي يتردى هو فيها وأن الحسد هو القيد الذي يمنع عن كل تقدم ثم ساق صاحبه للهلاك .



## ذكرى الأربعين
## عبرات على قبر الشيخ الطرابلسي[1]

مات الشيخ الطربلسي واختفى عن الأنظار فنبت ذكرى خالدة في القلوب كما يختفي النهر العجاج اذا التقمه الثرى لينبت عطرا مقيما في الزهور وحلاوة مستمرة في الثمار .

مات الرجل الذي دميت له قلوب ميزاب كلها فأمست جروحا فاغرة في الصدور لأن ركنا منها قد اقتطعه القبر لما تفتحت أشداقه لإبتلاعه .

مات الرجل الذي ندبته الأسفار وتأيمت بموته خزائن الكتب لأنها الأسرة التي عاش بينها يضفي عليها حبه وجهوده لا غرام له في غيرها .

وأظلمت البقاع التي كان نورها لما انطفأت أنوار مكتبه التي كانت تؤنس النجوم إلى الصباح فأمسى فيه من فقدانه معنى القبر ، واستنار القبر به فأمسى فيه روح المكتب ، غير أنه لا ينغمس فيه في جنات الأسفار التي كانت نشوته في دنياه ولكن في فراديس ربه .

أيها البطل الذي أمضى حياته في مقارعة الدهر الذي تألبت عليه أحداثه ، ثابتا في ميدانه الأدبي لا يتزعزع ، راضيا بالشبع العقلي وان كان ممزوجا بالجوع الجسمي ، قرير العين بثروته من المعارف وان كانت دنياه سطرا مدلها في كتاب .

(1) المصدر : البصائر عدد 77
التاريخ : الاثنين 27 جمادى الثانية 1368 هـ 25 أفريل 1949
☆ تنظر ترجمة الطرابلسي في كتاب محمد الهادي فس السنوسي شعراء الجزائر في العصر الحاضر الجزء الثاني 1927 .

لئن مت في شخصك فانك خالد في شخصيتك في كتائب التلاميذ التي أحسنت بناءها ونفخت فيها روحك فامست مظهرا لك تجلو ألوانك المشرقة كما تجلو خمائل الربيع ألوان الغزالة وحياتها وان غربت عنها .

فليهنك أنك من الرعيل الأول الذي نفخ الروح في هذه الأمة فتحركت، ومن أجنحتها الجبارة التي نبتت في جنبها فبثت فيها غرائز النسر بعد أن كانت بروح الدجاجة ، وانك من بناة النهضة الحديثة في الجنوب ، تزينك نياشين البطولة من الجروح العميقة التي أصابتك في وضع أساسها .

لقد كنت رجلا عصاميا بنيت نفسك فبنيت بها أمتك ، لم ترض أن تكون عالة على غيرك في العلم وفي المجتمع ، وأبيت أن تكون كالظل في الهجيرة لا يكون إلا بالجدران التي يحتمى في أصولها ، ولكن كالنور !

وكنت علامة في الحديث ، بحرا في الرواية ، بكى مسلم والبخاري والربيع غداة وفاتك أسى على أنفسهم لأنك كنت لهم حياة أخرى على الأرض فانقطعت !

وكنت شاعرا بكاه الجمال ، وأصبحت الحدائق غريقة . في دموعها من الأنداء أسى على فقدان الروح الشاعرة التي كانت تدرك جمالها وتتضاعف بها .

واقفرت المجالس بعدك من أنسها ، وانقبضت القلوب وجللها الظلام ، وكنت نورها بطلعتك ، وحياتها بمرحك ، تغمرها من دعابتك وفكاهتك بمثل نثار الزهر من الشجرة في ربيعها اذا هزها النسيم !



عليك سلام الله ورضوانه ورحمته في مثواك ، لقد كنت ركنا للقلوب لما صرت ركنا لأمتك في نهضتها فتصدع ، فالقلوب بعدك جروح من الأسى لا تندمل .

لقد تعطلت الأعمال كلها في المدينة غداة مصرعك ، وعقل الحزن كل عضو فيها فلم يتحرك ، لأنك معدن قوتها ، ومصدر كهربائها قذفه الموت بقنابله فدمره .

وخرجت مدينة (بريان) كلها ثكلى تتقطع حزنا وراء نعشك ، فلم تر الخلائق قبر ميت عجن طينه بدموع الباكين غيرك !

ان تقلب الإنسان في جنته من تقلب القلوب المؤمنة غداة موته في نيران أحزانها عليه ،، فنم قرير العين فما السقيا لقبرك فيزهر لك من السحاب ، ولكن من شؤون الصاحلين وقد استهلت عليك !

لقد ولدت في طرابلس وقضيت في ميزاب ، وكذلك الشمس لا تغرب في مشرقها .

ان قلبي بموتك أيها العلامة مغرب الشمس غير أن احمراره لا من الشفق ، ولكن من نيران الأحزان المتأججة فيه !

ها أنا أقف على قبرك بعد الأربعين ، وقد جف ترابه وما جفت مآقينا فأنثر عليه دموعي في هذا الشعر المنثور فان عجبت كيف لم يعقل الحزن لساني فاعلم أن هذه الجمل هي حبات الماء في غطاء القدر اذا فارت بالنيران وأورثها القريحة قلبي الفائر بأحزانه فانتثرت عليك !

عليك سلام الله ورضوانه غمائم تنهمر عليك لا تصدر من البحر اذا فار ، ولكنها صدرت منك لما كنت تغلي بالجهاد في نصرة دينك وأمتك فملأت بها صحائفك في السماء .

## حمار الحكيم[1]

كان حمارا هزيلا أعجف هجرته الرياض ففعل به الهجر ما يفعل بالعاشق الذي يراعي النجوم لا يعرف النوم ليله ونهاره لشدة بلواه وانقطع عنه العلف فلا يراه إلا في المنام اذا حلم به فعاد صورة حمار لم يبق فيه كاملا الا حوافره . وكانت أذناه مهدلتين من الجوع تهدل أوراق الشجرة اذا ألح عليها الجدب . وعيناه غائرتين من الهزال كأنهما تحاولان الهرب منه فتقهقرتا شيئا فشيئا عن محجرهما وكان شعره مشعثا مغبرا ، كأنه هشيم الأرض اذا جفت بنيران السموم وكان جلده مترهلا عليه كأنه كفن لفت فيه عظامه التي بالغ الجهد في تعريقها فصارت فيه كفروع الشجرة العارية في الشتاء ، وكان ساهم النظرة يحدق بهما في ذهول كأنه فيلسوف يمعن النظر في حقيقة ليست في الخارج ولكن في دماغه وكان مطأطىء الرأس يمشي وهامته منخفضة أمامه لا يكاد يقوى عنقه الهزيل على حملها كأن الأيام التي أكلت من جسمه قد زادت في عقله فأثقلت رأسه بكثرة أفكارها . واذا نهق أضعف الجهد نهيقه فيصدر منه مقطعا كآهات المريض . قلت له : يا هذا أراك مسكينا من الدواب وأنت في بيئة الشمال الخصبة فهل ثر عقلك فقدر عليك عيش الأديب الذي يكتب له رزقه الا كبر من أفكاره فيموت جوعا في ميادين المال والثراء . أراك لا تعرف

(1) المصدر : البصائر عدد 217



الشعير الا بالإسم وأظنك أنك نسيت من الألوان الأخضر لأنك لم تشاهده في الكلأ منذ أمد طويل . فمن عاشرت من بني الإنسان فأهملك هذا الإهمال وقتر عليك في الرزق ورآك مستعمرة لا تمنح من أسباب الحياة إلا بمقدار ما تتحرك كي لا تموت فتفقد ذاتها لقد أمسيت هزيلا وظلك يبدو للناس أكثر منك لأنه يحجب عن النفوس المقرورة شمس الشتاء فتشعر به . انك يا مسكين موجود في الأرض ولست موجودا فأنت من الهزال كهمزة الوصل لا تبين في النطق وهي موجودة في الكلام ! فمن الذي حذف منك النضرة والفراهة بالنفي فضؤلت وصرت كالفعل المنفي قد حذف منه ما يرتفع به ؟! قل من أهملك ما دامت هيئة الأمم معقودة لأرفع أمرك إليها فتنصفك فإنها نصيرة الضعيف وخليفة المسيح في الأرض ... فرفع الحمار رأسه وقد شعر بالشبع القلبي من الرحمة لما وجد من يكترث به ويرق له فاسترجع قوته فقال : ان صاحبي هو الأستاذ (حوحو) وقد هاجرني وأمسك عني غذاءه لأنني عنده حمار كالأرض السبخة لا تسمن بالنبات وقد حكم علي بهذا بعد أيام قليلة من عشرته وبعد محاولة قصيرة بالغذاء ، وكان يناولني الحشيش باليمنى ويتلمس ظهري باليسرى مفتشا عن أثر علفه في الشحم واللحم قبل أن أقضه وأهضمه فلو كنت نارا يمدني بالوقود من النفط ما انتظرمنى أن أربو وأزداد في اللهب بتلك السرعة التي يريدها في زيادتي بالسمن !

قلت ان صاحبك قد أثرت فيه مهنة البرق التي كان يشتغل بها في البريد فصارت السرعة هي طابعه في الحياة فقدتهكم على

الجزائر بأنها أمة جامدة لا تتأثر بالأدب بعد بضع مقالات كتبها في وقت قصير لأنه يريد أن تكون القلوب في التأثر به فتلد أعمالها كأوراق البريد في البلاد النائية التي يوجه إليها اشاراته ترتسم عليها سريعا فتلد معانيه . ان صاحبك هذا لو كان فلاحا لرخص الحطب في السوق .

قال الحمار : ليته يكثر فيرخص فيلتحف الناس دفء اللهب في البيوت فلا يزاحمونني في ضوء الشمس أيام القر كدت والله أستغيث بهيئة الأمم لتنصفني من بني الإنسان الذين يطردونني من الميادين ومن الحدائق العامة التي تسطع فيها الغزالة فيستأثرون بها كأنهم يرونني مسلما ، الحرمان من النور في وطنه هو ما يعامل به ! ولكن كيف يرخص الحطب لو كان صاحبي فلاحا يحمل الفأس والمنجل ؟

قلت : يقطع كل شجرة لا تورق وتزهر وتناوله ثمرتها ناضجة قبل أن يجف ثراه من حوضها لأنها عنده شجرة عقيم لا تثمر . ولو كان صاحبنا مديرا لمعهد عبد الحميد لبقي صفرا من تلاميذه لأن هذه النفسية البرقية ستطلب من التلميذ أن يكون عالما من أول يوم فاذا وجدهم لا زالوا تلاميذ بعد سنين طردهم أجمعين لأنهم بلداء كالأمة التي لم تتأثر بكلامه من أول يوم فتغير أوضاعها .

قال الحمار : لعمري إن الانسان خلق من عجل لو كنت مطية الأستاذ حوحو لرأى أذني أمامه فرامل سيارة السباق فيطلب مني أن أصل الغاية البعيدة في لحظة .

قلت : لو كنت مطيته فصار يشكُّك بسَلْي كالكلمات اللاذعة



ويضرب على جنبيك بعقبيه حتى يدق ضلوعك ويسلط على رأسك العصا حتى يرتج دماغك في القحف وينهال عليك بأوصاف كالعصا فيراك بليدا لا تتأثر جامدا لا تحس . فما ذا تفعل ؟ هل تكون كما يريد فتنبت الأجنحة بجنبيك فتطير به طير العقاب منطلقا إلى وكره ؟

قال الحمار : ان الظلم يضاعف الحي باذكاء القوة فيه فيأتي بالمعجزات في رد العدوان فترى الضعيف من بني الانسان يرتد أسدا بمخالبه فيستأصل الباغي عليه وتراني أنا أصير انسانا أقف على رجلين .

قلت : وكيف تقف على رجلين فتصير كالإنسان ؟

قال : اذا أرادني الأستاذ حوحو أن أخرج عن طبيعتي فسلط علي العصا فإنني أقف برجلي الأماميتين وأركل في الجو بالخلفيتين فاصير بهذا منتصبا كالانسان لا يركب !

قلت : وأين يكون الأستاذ حوحو حينئذ منك ؟

قال : يكون تحت حوافري أطؤه بها وطء المعصرة للزيتون . فان العجول الذي يقهر الحي أن يخرج عن طبيعته ويصفه بما لا يليق به ليس له إلا الركل لينتبه .

قلت : ان زعماء الجزائر في الشمال والجنوب قد حمدوا مطيتهم من الأمة لأنها أبلغتهم كثيرا من غاياتهم الكبرى فنشأ في الشمال معهد عبد الحميد الذي يعمل فيه الأستاذ حوحو وما يحفه من مدارس كالنجوم في أنحاء الأمة ونشأ في الجنوب معهد الشيخ بيوض وما يكتنفه من مدارس عصرية قد أنشأتها الجمعيات الخيرية

في كل قرية وقد حمدوها أيضا في ميادين النضال فوجدوا منها القلعة والمنجنيق في معاركهم مع الخصوم .

ان الجزائر سرحة كريمة تخرج ثمارها وهي غارقة في الثلوج التي تصد عنها الهواء والشمس من كل جانب وأرض خصبة ترينا رياضها وهي مغطاة بالجراد ، لو لبست يا أبا جحش برنوسا أحمر «كالقياد» وعمامة ضخمة لإحتفل بك صاحبك وقدم اليك القهوة وأنفق دراهمه اليسيرة كلها عليك في مطعم أنيق مبالغة في الحفاوة بك .

قال : سألبس البرنوس الأحمر وأذهب اليه فان الذين يلبسونه لا يمتازون عني إلا بآذانهم القصيرة التي لا تسمعهم نغمة الدين والوطن وبروح أبي هرير اذا جن فعض الألف وكشر على الأهل ورفس برجليه في وجوه العلماء رفس أم جحش اذا ركبها الدلال ..

ولكن لماذا يحتفل بي صاحبي اذا لبست البرنوس الأحمر ؟

– 2 –

قال أبو جحش : ولكن لماذا يحتفل بي صاحبي اذا لبست البرنوس الأحمر ؟

قلت : لأنه يراك إنسانا عظيما ، فهو رجل ينخدع بالمظاهر لقد أيس من الجزائر وتشاءم بها وأطفأ عنها مصباحه وهي غريقة في الثلوج لما تتأثر بحرارته فتزهر كالشجرة التي تضطرم عليها



الشمس في الجزيرة ، انه لا يعلم أن تلك لو ظفرت بجو هذه لكانت أشجار الدنيا بجانبها نباتا في حوض الدوحة العالية ، ان ازدهار الشمس في السماء الصافية ليس معجزة يحمد صاحبها ولكن ازدهار المصباح العاري في العواصف التي تصدمه من كل جانب . انك يا أبا جحش حمار ولكن بخصائص الفرس ، فاحتقرك صاحبك وانتهرك ثم طردك وقطع عنك حتى النخالة فلم يجد بها لأنه قد اشمأز من هزالك وحكم عليك بأنك قبر لا تعمره الا العظام النخرة التي لا تكتسى بالغذاء ورأى فقرك من عافيتك لفقرك من الخصائص الجميلة الغافية فيك ، ولو لاحظ لوجد فيك فرسا مطهما يغنيه عن (أترمواي) فيغمره بامداد من شعير تنعشه .

قال الحمار : آه إن الشعير يجيش في خاطري كلما ذكر الشعير فأهم أن أتغزل به من شدة اللهفة إليه ان الفقر يجعل الخبز القفار في عين البائس هو زينب والرباب فيهتف بها ، وهل يلام اذا كان له من همومه وبؤسه ما يغص به قلبه فلا يتسع لحب الغواني ؟ وهل يوصف بالبلادة وموت الشعور اذا كان يحس إحساسا حيا بآلامه فتستولي عليه ؟!

قلت : ان هذا عند صاحبك ميت لأنه يحس بآلامه فهو رجل يناقض نفسه في الكلام الواحد فالجزائر عنده أمة تعتني بالأساليب فتشتغل بها ولا تعتني بالمعنى فتتأثر به ؟! وهل يعتني بالأسلوب في الكلام إلا أمة راقية قد تكون ذوقها الأدبي فصارت تفقه الجمال في الشيء فوق إدراكها لحقيقته «فأنت يا أبا جحش تكرع ماءك من الغدير وتمتصه من الطين فتستحليه ولا تتطلب مزيدا

في الماء على عذوبته . أما الانسان المتحضر فيتطلب شروطا في الإناء الذي يقدم فيه أيضا . بأن يكون مزخرفا ومن البلور الذي يجسم الماء في رقته وصفائه فتشرب منه العينان أيضا فلو أن كأسا زجاجية صافية كأنها خلقت من أنداء الفجر أو من نور الصباح عليها زهرة متفتحة زاهية كأنها في الغصن : فقدم فيها دواء مر ، فهل تستبشع الأذواق الرهيفة التي تدرك جمالها عدم الإنسجام بين المرارة والحلاوة التي تسكر العينين وتتطلب أن يكون في الكأس عذوبة تنعش النفس ، أم تذهل عما فيه فلا تشعر الا بالزخارف والتهاويل ؟

قال أبو جحش : بل تستبشع عدم الإنسجام لدقة ادراكها إلا أن يكون من يكرع منه أم جحش فإنها لا تفتؤ تلحس الزهرة في الكأس لتقتلعها فتبتلعها فيلهيها ذلك عن الشعور بالمرارة . ان الأستاذ حوحو يظن أنه يوجد كلام جميل مزخرف بدون معنى بديع هو سبب تأثر النفس به ، كما توجد مخلاة مزخرفة يزين بها جدار مكتبه ولكن بدون شعير يقوي به حماره ، ان ذبان التلقيح نفسها لا يجذبها في الروض جمال الزهرة فتعكف عليها إلا اذا كان فيها حلاوة تملأ أعماقها ولكن ما هو سبب تأثر الجزائر بزعمائها الروحيين باديس والإبراهيمي وبيوض والتبسي فأخرجت ثمارها وأعقمت بأمثال الأستاذ حوحو فكانت شيئا يركل عندهم لأنها جذع ميت ؟

قلت : ان الزعماء الأربعة كانوا لثباتهم كالديمة تنهمر على الأرض مستمرة لا تنكف حتى تغسل الأرض من جدبها وترتوي .



أما شباب اليوم فيرش الأرض الكريمة اليابسة رش الكنس فاذا لم تتحلل بالثمار انهزم ساخطا وهو يصفها بالتحجر !

قال أبو جحش : لعمري أن رش الكنس اذا كان يخرج العقارب من أجحارها فلا يخرج الجنات من الأرض .

قلت : لتلك العقارب التي رآها الأستاذ حوحو برشه ظن أن الأرض لا تلد إلا ما رأى ولا يعلم أنها تحتوي على الفراديس التي لا يبرزها إلا بحار من الحبر .

قال أبو جحش : ما تقول : ان المعاني العظيمة لا ينبتها في قلوب الأمة إلا أنهار من الحبر ، وقد تسخط صاحبي بعد قطرات من مداده لو قطرت في عينه ما دمعت . وان له محبرة صغيرة جميلة على مكتبه تلتمع بحبرها كعين العصفور وتبدو في سوادها على مكتبه الأنيق كالخال الظريف على الخد المصقول . وانها بعد مقالاته كلها كالبئر الجموم تفيض بحبرها فيضان مخلاة الشعير التي أراك تعزم تأمر بها لضيفك أبي جحش .

قلت : سأقريك شعيراً تغوص فيه إلى القمة ورياضا تخوض فيه إلى الركبة وماء قراحا يشفي الغليل ورملة ميثاء تذهب عنك تعب الأوصال وتغسلك من الغبار فتخرج منها كأنك صادر من حمام ولو أنك رأتك أم جحش لأنكرتك لتبدلك من أغرار إلى نضارة وأراك الآن أيها الضيف العزيز تبدو أخاديدك بالهزال عاريا من نضارتك . كأنك قلم هاجره صاحبه فلم يكتس بنضارة الحبر فبدا شقه بارزا متفتحا كأنه قبر لمعانيه الميتة !

قال أبو جحش : ان البؤس وان أهزل جسمي فقد سمن به عقلي

فعرفت أن شباب اليوم كعصرهم يؤثرون السرعة في كل شيء فهجروني ، فلم يعد صاحبي يتبختر بي أيام الجمع في جبل الوحش ، وفي جنات (الحامة) بل يكتري سيارة مسرعة بنفقة تكفي علف حماره شهورا ، ثم لا يرى بها من جمال وطنه الا ما أدرك بنظرته السريعة من مميزات أمته في شخصيتها الجبارة فحكم عليها بما ترى !

قلت : حقا ما تقول ان الإنسان لا يكون بمعانيه إلا اذا عمسته الأيام في السواد ، ونكسته كالقلم في الكتابة !

قال أبو جحش : وان المرء كالشعير الذي واعدت به فأبطأت لا ينبت فيلبس خضرته وسنابله إلا اذا دس في الرغام وتجرع السماد النتن هناك .

قلت ستظفر من الشعير بما ينسيك المسغبة ولكن هل لك في القهوة والكعك وكل ما لذ وطاب من وليمة العرس ؟

قال : من لي بذاك ! لو علمت أنني سأجده في القطب لطرت إليه .

قلت : ستجد ذلك عند الأستاذ عبد الرحمن شيبان فإنه لا يزال غريقا في العسل . وما أرى ولائم العرس إلا متصلة مع سكوته بعطلة الزفاف . أن المرأة قد عقلت لسانه وسدت فمه فلم نر له في «البصائر» شيئا منذ تزوج . وكان يجب أن يتضاعف بها فيمسي بلسانين ... انه يغط في نومه ، وأرى أن تذهب إليه مصطحبا أم جحش فتقفا تحت نافذة نومه فتنهقا بأشد أصواتكما نهيقا يدوي به الحي ويراه الأستاذ صفارة الانذار في وقت الحروب فان نهض



فذلك وإلا فالقنابل من حوافركما تنهمران بها على النافذة حتى تتفتح مرغمة وستجد نضد المنام مثقلا بالحلوى وبالعطور بدلا من الكتب التي كان ينوء بها فعليك أنت بالحلوى فالتهمها فانها هي التي غص بها الأستاذ أيضا فامتنع كلامه . وعلى أم جحش أن تنغمس في العطر فتمتصه إمتصاص الأسفنجة لا تترك منه شيئا ، فإن العطور هي الغازات الخانقة التي تقتل الشعر في الإنسان ولا يحييه كأنفاس المصباح النتنة في الأسحار .

قال أبو جحش : واذا عقمت وتبلد خاطري بالحلوى فلم أعد حمار الشعر ؟

قلت : تصير حينئذ حمار الشعير .

قال : آه الشعير !! أرجو أن لا أخرج من باب الصفاء الذي يزورك منه الأصدقاء ، ولكن يكون خروجي إلى «قرطة» من باب آخر أمر إليه من حجرة الشعير فما كلفتني به يستدعي جهدا فلابد من التزود له بربوة من شعير أنسى فيها نفسي أياما . فسار أبو جحش الى باب خروجه من حجرة الشعير . فما كدت أنغمس في مراجعي لأكتب لتلاميذي في المعهد فصلين في تاريخ الجزائر حتى طرق طارق فعرفت أنه أبو عثمان الجاحظ قد قرأ مقالة الشيخ عبد الوهاب بن منصور فأعجبته وأطلع على (جنون العبقرية) و (معاول الهدم) في المقال الثاني للأستاذ حوحو فجاء صاخبا ليملي على حديثه للبصائر . وسأنقله للقراء بعد كتابة حصة الشهر في التاريخ فما أحوجنا إلى تاريخ بأسلوب أدبي يحببه إلى الشباب وبتحليل فلسفي يشرح خصائص الجزائر الذهبية فيمتلىء أبناؤها بالإعجاب .

## حديث الجاحظ
## من أسباب ضعفنا في الأدب[1]

وبينما أنا أنقب في مراجعي لأجمع مادة الدروس في تاريخ الجزائر لتلامذة المعهد طرق الباب طرقا عنيفا زلزل أركان الدار وكادت ألواح الباب تندق ، ورتاجه ينقلع فعلمت أن الطارق أبو عثمان الجاحظ فقلت في نفسي ان كان للعبقرية جنون كما يدعي الأستاذ حوحو فهذا من جنون العبقرية في الجاحظ وإلا فإن الهدوء في التصرف لمثله أجمل وضبط النفس في الغضب لطبقته من الفلاسفة أولى فقمت مسرعا رحمة بالباب فدخل الجاحظ وقد زاد الغضب لحدقتيه نتوءا فبدتا في وجهه كأنهما رصاصتان قد انطلقتا من بندقيتها إلى الهدف وكان مكفهرا كأن طلعته السماء اذا أربدت بالسحاب فاشتعلت على صواعقها وكانت لحيته تهتز إهتزاز الشجرة بالعاصفة منبئةً عن الأعصار الثائر في نفسه وكان في شملته ملفوفا ولكن كالسيف في غمده على خشونة في حده .

وكان الجاحظ وان غضب لا تعدم في ثورته من الفكاهة مثل رقة النسيم وبرده في العاصفة اذا هبت في الحرور وكان يقرأ البصائر ويترقب صدورها ترقب الصائم الهيمان لمدفع رمضان وكان يراها مظهرا للعربية في هذه الربوع وعنوانا للجزائر في أعين الدنيا واذا رأى فيها لحنا في العربية أو فسادا في الأسلوب أو خطلا في الرأي

(1) المصدر : البصائر ، من العدد 248
التاريخ : الجمعة 13 ربيع الأول 1373هـ 20 نوفمبر 1953 .



أحس به كالقذى في عينيه لا يستطيع صبرا عليه وكان يريدها صافية كنور الشمس لتكون مجلى لأدب الجزائر التي يسيء الظنون بها أقوام ويرون العربية فيها هزيلة كالشمس في مغربها !

وكان يتتبع المعركة التي أثارها الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ويعجب بآرائه في أدباء الجزائر ويراه ناصرا لفكرته مبديا لرأيه في الموضوع قد قرأ بعض ما نشر في هذه المحاورة فلم ترقه بعض الأسباب التي تعلل بها كتابها لسكوت الأدباء في الجزائر وأطلع على شطحات الأستاذ حوحو ومناقضته لنفسه وسوء رده على من أراه هفواته وأخذ بيده إلى الصواب فغضب لا بتعاد صاحبها عن أدب اللسان وأدب النفس في ذلك المقال وإسترساله مع العاطفة كالأطفال في موطن يجب أن يكون فيه على وقار الرجولة فجاء إلي عاصفا ليكفكف غضبه بما يملي علي من حديث وقد عاقني عن نقل هذا الحديث للقراء في أوانه أسباب قاهرة على السكوت بعضها غمر بالعسل فحلت به الأيام وبعضها فاض بالمرارة فصار الزمن به الهاجرة التي يخرص الطير فيها عن الهديل وجفاف الحلق من الظمأ كامتلائه بالماء كلاهما يمنع من الكلام فدخل الجاحظ فأخذت بيده إلى بيت كتبي فما كادت عيناه تقعان على خزانة الكتب حتى أسفر وتهلل وانقلب من نار إلى ماء يسيل والكتاب هو ما يسحر الجاحظ وينسيه عالمه فيتفانى فيه تفاني المحب في حبيبه اذا غرق في أحضانه وهو سبب نشوته وجلاء صدره ويأمل بهجته وإنك لا تبلغ رضاه بشيء من القرى كالكتب اذا حففته بها وتركته يرتع فيها .

فحدق الجاحظ في صوان الكتب يستعرض أسماءها ويتبين خطها

الأنيق وورقها الممتاز وفهارسها الدقيقة وشكلها البديع ثم رأى أثمانها المرسومة عليها فزفر زفرة الخانق الملتاع فقال : عجبا للبطون الجائعة على الموائد الحافلة والعقول الهزيلة وهي محفوفة بأسباب الكمال والأقلام الضعيفة ومناهل الأدب مشرعة ورياض البلاغة على كثب لكل مريد ولكن إنطفاء الرغبة تجعل المرء يموت جوعا وهو مفترش للذهب وفسولة الهمة تجعل صاحبها يحترق عطشا وهو يخوض في الأنهار ان عصر السرعة قد وسمكم بطابعه وعداكم بعجلته فخفت أقلامكم في الكلام كما خفت عقولكم في التفكير وخطواتكم في المطالعة ، رحم الله عصرنا لقد أورثنا الرزانة ببطئه والقوة بخشونته والإنسان ابن بيئته وسليل عصره كنا نتحمل كل جهد بسفر الجمال والارتحال بعيدا للأستفادة من العلماء وقضاء الشهور الطويلة في نسخ كتاب لنستطيع دراسته والإستفادة منه وقبل عناء النسخ تعب المحاولة مع صاحبه ليعبره فإن عصرنا لحرصه على العلم وندرة الكتب فيه جعل الكتب عند العلماء بمنزلة العيون فيهم لا تعار ، وعلى طبيعة العيون في الأرض لا تنقل من مكانها وكنا لا نظفر بكتاب إلا بمرارة تشق المرارة وأتعاب تذيب الجبين أنهارا من العرق واذا نجونا من عناء النسخ من الأصول وظفرنا بكتب فإننا نبتلي من أغلاط النساخ فيه بما دونه عناء الكتابة وترانا نقرأ على حذر ونحن متيقظون لأن الساحة خبار[1] لا يأمن فيها السائر من الحفر . واذا فهل وقع في المهالك في مثل ما وقع فيه من قرأ الباء ياء في الحبة السوداء وكانت تلك الأناة لتبين الخطّ الفاسد ومعرفة اللحن الشائع والإهتداء إلى

(1) الخبار أرض فيها جحرة اليرابيع وتوصف بالصعوبة .



المعنى المدفون تحت أغلاط النساخ تجعلنا أكثر نفاذا إلى القرارة وأشد غوصا على المعنى البعيد ، فنفهم كل فصل في الكتاب ونقف على كل ذرة في السطور ونفقه كل كلمة في الجمل فنصدر من السفر ونحن كمن قلب الشيء بيديه وأدركه بكل حواسه فعرف خصائصه في كل جوانبه أما أنتم في مطالعتكم العجلى بطرقكم الممهدة فكمن ينظر إلى الجديد المركب ومن يعيد ويمر على الطريق الذي يجهله مر القطار بالراكب على شجرة فينانة لا يراها إلا شبحا غامضا وقد رأيت كتبكم وان خطها لجميل على ورقها المصقول أبهى من الخال في خدود العذارى وأن حبرها كأنه من سواد العيون والناظر إلى سطورها في نشوة بالجمال الذي فيها كأنه يحدث في الخصلات المرصوفة على جبين الحسناء ، وان الكتاب في عهدكم على أناقة المتيمة المترفة اذا إستعدت لموعد غرام وهو على صواب الحاجب الأزج اذا بالغت صاحبته في تطريته فنفت منه كل شائبة وخلصته من كل الزوائد فصار على العيون النجل كالإستعارات البديعة في الكلام ، لله جلده ! كأنه من أهاب الخدود ولونه القرمزي كأنه هرب من الشفاه ! ولكن هذه الطرق الممهدة المصقولة تبعثكم على حث الخطى فلا تقفون من تقبل الكلام إلا على الهامش ، ولا تحصلون من فائدة الكتاب إلا على الفتات فتصدرون من الدرس كما وردتم ليس فيكم من آثاره الا ما على السهم من الماء اذا مرق في النهر فصدر من الجانب الآخر ان الأناة في القراءة هي سبب النبوغ والنفاذ إلى القرار هو مايقلدك بالدر والعقل كالسائمة لا تسمن الا اذا أمسكت نفسها على الروض النضير وقد رأيتني في أيام التكون وأنا أردد بيتا لشاعر أو جملة لبليغ أو آية من قرآن أياما طوالا لأفهم

معانيها وأتذوق أسلوبها وأقف على سر الجمال فيها فأجدها من الأثر في السليقة ومن الجدوى على القلم ما لا أجده من كتب طوال أمر عليها مر العاصفة .

– 2 –

فسكت أبو عثمان ليبلع ريقه ثم زفر زفرة الحانق المغضب فقال : أف لكم أبناء هذا الزمان لقد أفسدتكم الجدة وماتت فيكم الرغبة في الكتاب لكثرته في أيديكم وسهولة اقتنائه ورخص أثمانه والشيء اذا ابتذل قلت قيمته في العيون والدر نفسه لو كثر لفضل عليه الحصا اذا انعدم انه لا يوجد متعلم في عصركم وان عرقه الفقر يعز عليه كل ما يشاء من الكتب بالشراء أو بالإستعارة ولكنكم لستم على غرامنا بالقراءة وشغفنا بالعلم أيام كانت الكتب أعز من الحرية مع الإستعمار اللاتيني وأندر من إنصاف المستعمرين للشعوب لأن الحرمان كان يذكي فينا الرغبة والعقبات الكثيرة دون الكتب كانت تؤجج فينا لهفة المنقطع في السباسب فنظفر بهذه الرغبة من الأسفار على قلتها في أيامنا بما لا تظفرون به على كثرتها في عصركم وكم من سفر نفيس في زماننا كان لا يوجد منه إلا نسخة واحدة وتلك النسخة في خزانة السلطان ، ودون الخزانة ألف رتاج ماثل فنتوسل بالمعجزات حتى نصل إليه فنقرأه وقد رأيتني في أيام النشأة والتكون وأنا يتيم لا عائل

(1) المصدر : البصائر من العدد 249
التاريخ :



لي فقير لا أملك إلا ما على ظهري من أخلاق أبيع السمك على نهر بالبصرة طول نهاري ثم أربح دريهمات فلا أرى أن أنفقها في غذاء الفكر وفيما يستر عورات العقل من الجهل وكانت الكتب النفيسة غالية فيساوي الواحد منها مائة دينار وألف دينار فلا أستطيع شراءها فعقدت الصلة بوراق يبيع الكتب فصرت أدفع له ربحي في نهاري على أن يتركني أبيت في مكتبته أقرأ ما فيها من الأسفار النفيسة وقد قضيت أيام النشأة وأنا لا مسكن لي الا تلك المكاتب أبيت فيها قارئا إلى الصباح ولا يخامر النوم جفني ولا يلم بي كسل ولا ملل وكيف أجد الملل وأنا في لذة العمر ونشوة الحياة وفي نعيم الوجوه وبهجة الدنيا وهل أحلى من كتاب تفض مشاكله وتغوص على معانيه وتحتسي روعته وتعانق منه الفجر الذي يملؤك بالنور والشباب الذي يؤجج فيك الحياة والأنس الذي يورثك الإنشراح والبهجة التي تجلو عنك كل الهموم إنه أحلى من الحبيب المواتي والسعد المقبل والأيام الباسمة وزمن الشباب المترع بالأفراح ، وأن خشخشة أوراقه ألذ من صرير الأساور وصفرتها أجمل من حمرة الخدود وأنفاس المصباح في قراءته أذكى من الأردان العطرة في المهى ، ان شيخك أبا عثمان اذا شعر بحسرة فعلى ما فاته من قراءة كتاب وانتهاب حظه من المعرفة آه لو كنت في زمنكم فظفرت بوسائلكم في العلم وحظيت بالمكاتب العامة التي هجرتموها إلى المقاهي وهربتم منها إلى السينما ، وآثرتم عليها التسكع في الشوارع .

ان حب المادة قد قتلكم فحرمتم حتى المادة فتعلمكم للرنان لا للعرفان وطلبكم المعرفة للخبز جعل في الكتاب طبيعة الرغيف وفي عقولكم طبيعة البطون فصرتم تشبعون من القراءة بصفحات ثم تزورون ازورار المكتظ عن الطعام وتعرضون اعراض الريان الشرق عن الماء لأنكم تتعلمون للشهادة وتقرؤون للإمتحان والقليل في إمتحان هذا الزمان الذي هو كامتحان الإنسان في البطولة بالإختتان يحوز لكم الفوز

ويتوجكم بالألقاب ثم تموت رغبتكم في العلم لوصول الغاية والظفر بالمراد فيعرض أحدكم عن الكتاب إعراضه في أيام الرجولة عن العاب الطفولة ويراه شيئا قد تقدم أوانه وانقضت الحاجة منه فلو كنتم تطلبون العلم لشرفه وتسعون نحو المعرفة لذاتكم لتجددت لكم الحرق فيه فتظمؤون إليه على قدر مبالغتكم في ورده وتتكون لكم مثل عليا جديدة فيه كلما إستشرفتم منه ربوة ووصلتم فيه غاية فتزدادون غراما به طول الحياة وتزدادون ادراكا للنقص فيكم بما يبدو لكم دائما من آفاق منه لا تعرفونها فتدأبون في طلبه كل العمر ، صدق رسول الله ﷺ اذ قال: «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال» فلو كنتم تطلبون العلم لكنتم على النهم فيه ولكنكم تطلبون الخبز في الكتاب والذي يطلب الخبز في العلم عاقبته في الجيل عاقبة الرغيف اذا لفظته البطون فاحمر وجه أبي عثمان من شدة غيظه فسكت ليبلع ريقه ويرشف من فنجان القهوة الموضوع أمامه ثم قال : ان زهدكم في القراءة وعزوفكم عنها هو الذي جعلكم على هذه الغثاثة في الأدب وعلى الهزال في المعرفة وعلى الضعف في التفكير ، ان صحفكم في الجزائر كولية الهدهد لسليمان ليس فيها إلا كاتب أو كاتبان يرضى عنهما عمك وهم كل ما يمسك العين على الجريدة وبقية ذلك مرق يجوز منه الوضوء ..

قلت : حقا ان الزهد في القراءة والمطالعة العجلى وإيثار السخيف من الكتب لسهولته وتنكب جمهور المتعلمين عن الجاحظ وابن العميد والتوحيدي وعن الصابي والخوارزمي والهمذاني ، وعن أبي تمام وأبي العلاء والمتنبي وعن نتاج القرن الثالث والقرن الرابع لما لبس الأدب العربي شبابه وبلغ قمته وظفر بنضوجه ان انصرافهم عن هذه الكنوز وانكبابهم على الغث المضر من الأدب الصحفي كأدب الصاوي ومن على غراره من الأدباء الذين يستوحون الغرائز المنحطة ويمجون ما امتصوه كالإسفنجة من مجون أوروبا وحمأتها هو الذي جعلهم على التأخر في



البلاغة وعلى الضعف في السليقة وعلى الفسولة في التفكير ، ولن تقوم لهم قائمة في البيان ما داموا يقتصرون على تلك المراتع الوخيمة في الأدب ولكنك يا أبا عثمان لو ألمت بالسينما لتشاهد ما لا تراه في مجتمعنا فان فيها حتى مناظر الحروب التي تغذي البطولة في النفس وتشبع غريزة المقاتلة في الإنسان .

قال : ان تعارك الأشخاص شيء من خصائص كل حيوان وإني أراه حتى من التيوس في المجزرة ... ولكن المناظرة والجدال وتقارع العقول بالبرهان مع تصافح القلوب بالمحبة وتنائي الأفكار في الأنظار مع تقارب الأفئدة بالصداقة والهجوم على الرأي مع الإحترام لصاحبه والوقار في المناظرة والتشبث بالأدب في الرد والرجوع إلى الحق اذا بدا ان هذه المعارك وحدها من خصائص الإنسان وهو ما يشوق عمك وإني أتمنى أن لو شاهدتها في بلادكم كما كانت تقع في زماني لقد ماتت في الجزائر فرحمة الله عليها وهي مما يشحذ العقل ويفتق اللهات ويزدهر به الأدب وقد مات في بعض النفوس آداب المناظرة أكثر وقد رأيت حمار الحكيم في عدد 225 من البصائر كيف يفسد الساحة كأنك لم تعلفه لما زارك شعيرا بل سقيته الملح الإنكليزي ...

قلت : أوان معاول الهدم مما ذكره في مقاله ذاك مبعث الاشفاق في كل رفيق بالأمة واني أتمنى أن يفيء شبابنا إلى حكمة باديس وبيوض والإبراهيمي وأبي اليقظان في شبابهم ويتركوا سنة العاصفة التي لم تستطع أن تجرد الأعرابي من شملته فسمع الجاحظ مدافع كالرعود مبشرة برمضان وأصواتا للصبية البهيجة بقدوم شهر الصيام كأنها تغاريد الطير في الشرق فأسرع في الإنصراف ولا أدري أإسراعه ليحتل مكانا في المسجد قبل أن تفيض المدينة فيمسي بها غاصا كالتمرة الريانة بحلاوتها أم هرب قبل إنطلاق معاول الهدم من آسارها .

## وقفة في دار الرافعي وعلى قبره[1]

طنطا !! كان لهذه المدينة عندي جمال الصدفة وجلالها لاشتمالها على الدرة الكريمة ! وكنت أراها بين المدن المصرية كلها كالزهرة بين الأوراق هي وحدها تشتمل على الثمرة وتنفرد بالجمال والأريج ؟ انها المدينة التي قضى فيها مصطفى صادق الرافعي حياته وانجب أدبه الرفيع ، وهي التي تضم رفاته وتشتمل على أسرته . واذا كان المكان الذي يمر منه الأديب فيلفت نظره بشيء يؤثر فيه فيلد له معانيه فان الوطن الذي يقضي فيه عمره هو أبو نتاجه يؤثر فيه كما أثر في سحنته ومزاجه . واذا كان القاموس يجلى لك الغريب من لغة الأديب فإن البيئة الإجتماعية والطبيعية التي نشأ فيها هي المعجم الذي لا يجلي لك معاني الأديب غيره ومن لم يعرفها كانت معرفته لأدبه ناقصة . وكنت قد عرفت الرافعي من أدبه فأحببته وأغرمت به وانه عندي سيد الأدباء في هذا العصر لا يضاهيه أديب من أدباء هذا الزمان في خصائصه . ومن يبتغ الأدب الرفيع الذي يشبع جوانب عقله كلها لا يجده الا في كتب الرافعي سيما أوراق الورد ، ورسائل الأحزان ، ووحي القلم . وكان الرافعي كالجاحظ وأبي العلا المعري في سعة المعرفة وحدة الذكاء والتوفر لفنه والغرام به . لقد كان عالما واسع المعرفة بكل ما يستلزمه الأدب العبقري من العلوم اللغوية والإجتماعية والفلسفية وكان أدبه مظهر العقل جباراً بالوراثة وبالمعرفة . وانك لا تجد أديبا في هذا العصر يتطلب منك في قراءته خيالك وفهمك العميق للمعاني

(1) المصدر : البصائر من العدد 334
التاريخ : 23 سبتمبر 1955م



ويؤجج عاطفتك أيضا ويستولى على كل جوانب نفسك ويريدها على أتمها في الثبوت لتستطيع دراسته كالرافعي . وذلك لعمري هو الأدب الذي يبنى الملكة ويمد بالغذاء ويرهف مواهب العقل كلها ، وسواه من الأدب الصحفي الهزيل الذي يغرم به أبناء هذا الزمن كاللبان الذي يمضغه الإنسان لا يحصل منه إلا على تعب الفكين !

لقد انعش الرافعي الأدب العربي في هذا العصربعبقريته وفنائه فيه وتوفره له واذا وجدت في معاصريه من الكتاب بتسلط الروح الصحافية عليهم أوراقا كثيرة وبعض ثمار لم تجد للرافعي لاعتنائه بفنه وافراغه فيه كل جهده واحتفاله كل الإحتفال به إلا الثمار . إن كتب من المعاصرين وكتب الجاحظ والمعري وديوان المتنبى وديوان ابى تمام من القدماء لا تفارق مكتبي ففي كل قراءة لها فائدة جديدة ونوع بديع من الجمال لا يبدو لك في القراءات الأولى وذلك لبعد غور هؤلاء الأدباء الذين عاشوا للعلم والأدب وتفانوا فيما تركوا لنا من نتاجهم فكان قطعة من نفوسهم يصور مثلهم الأعلى في الأدب والحياة . والرافعي مع عبقريته إنني لا تضاهى في الأدب مصلح إجتماعي من أكبر مصلحى هذا الزمان فأدبه أداة لإيمانه وغيرته ينير به الطريق لقومه ويهزهم لليقظة ويوجههم للمثل العليا الكريمة ولعزة الإسلام وقوته ، وليس أدب الغرائز المنحطة كالأدب الذي يمج به بعض الذباب الذي أنشأته دمن أوربا للشرق فنشر فيها الوباء .

والرافعي ممن اضرم الثورة على الفساد واللادينية والميوعة في الشرق ودعا إلى الأخذ بأسباب القوة المعنوية والمادية . وإذا قرأت مقالاته : يا شباب العرب . لو ... أيها المسلمون ، الأخلاق المحاربة ،

ثبات الأخلاق ، وغيرها كثير قد نشره في آخر الجزء الثامن من وحي القلم .

رأيت أي ثورة اضرمها في نفوس هذا الجيل . انه من طبقة عبد الحميد سعيد وحسن البنا اللذين اشعلوا الثورة المصرية التي طهرت مصر من أسباب الفناء ودججها بأسباب الرقي والحياة . وهكذا الصرخة التي يبعثها الإخلاص والصفاء لابد ان تثمر في الصدور ولو استكنت بذورها زمنا طويلاً . والرافعي أديب الخاصة لا يغرم به إلا من يجد ويجتهد في قراءته كمن يعرج إلى السماء لابد بجهد ومحاولة ، وترى كثيراً من الناشئين يطرحونه ويتأففون منه ويرمونه بالتكلف والتعقد وتلك لعمري نظرة الوليد الضعيف إلى الطعام الدسم الذي لا تستطيعه معدته ، وغرامه بالخفيف من الطعام الذي لا يرضى جبابرة الأجسام .

وكنت منذ عشر سنين في الأعوام التي قضيتها في الكنانة قد تعرفت بأفراد من عائلة الرافعي ممن يقيمون في القاهرة وكنت امنى النفس بزيارة طنطا وزيارة دار الرافعي والإطلاع على خزائن كتبه ومشاهدة منازل وحيه في تلك البقاع التي ألهمته كثيرا من أدبه . وكان القطار كلما وقف في طنطا ذاهبا إلى الإسكندرية أو راجعا منها أحسست بلهفة تدفعني إلى النزول لمشاهدة وطن الرافعي ، ولكنني كنت أرجىء الزيارة حتى أعقد الصلة بأحد أبنائه . فرجعت إلى الجزائر قبل أن أقوم بزيارتي فكانت في نفسي حسرة تتجدد كلما قرأت للرافعي ولما زرت مصر في الصيف الماضي كان من مهماتي زيارة طنطا ومشاهدة آثار الرافعي فكتبت إلى أحد أبنائه أخبره بزيارتي



فركبت القطار السريع إلى طنطا في صبيحة من أصباح الخريف الباسمة وكان الطريق من القاهرة إلى طنطا جميلا فتانا تحفه مزارع الذرة الخضراء وغابات النخل المزرقش بعراجينه الحمراء والصفراء . وكان القطار يطير بين مناظر الريف الجميلة وبودي لو تمهل في سيره لتطول متعتي بهذا الجمال الذي ألهم الرافعي كثيرا من أدبه الرفيع ، فوصلنا طنطا في الثامنة صباحا فقضيت ساعة أتجول في شوارها وضواحيها .

وكانت مدينة تحتوي على جمال المدن وسحر الريف ، وكانت في مقدارها وموقعها الخصيب «كالبليدة» عندنا ، ووسط المدينة شبيه بالقاهرة القديمة في البنيان وهندسة البيوت ، أما ضواحيها فبارعة الجمال بالحدائق الحالية بالزهور والياسمين وبالمزارع الواسعة التي تكتنف المدينة من كل النواحي ، وشوارعها فسيحة نظيفة ليس فيها زحام القاهرة وضجيجها . انها أحسن ما يؤثر الأديب خَلِيَّة له ينتج فيها فنه وتلهمه روائعه والريف الذي هو مصدر الأمة في غذائها وخيراتها هو وحده ينجب العقول العبقرية التي تنتج للعقول غذاءها ويلهم تلك العقول . فذهبت إلى بيت الدكتور محمد مصطفى أحد أنجال الرافعي . وهو طبيب متخصص في أمراض الأطفال ، انه الآن مدير ادارة الصحة المدرسية في طنطا ، وكان الدكتور محمدمتواضعا لطيف الحاشية دمث الأخلاق ، طليق المحيا فاستقبلني أحسن إستقبال وفرح بزيارتي .

وكان يسكن في ضاحية طنطا في بيت تحوطه المزارع الخضراء ومناظر الريف الساحرة . وكان الهواء الممتلىء بأنفاس الحدائق يتدفق

من النـافـذة الكبيرة فينعش النفوس . وكانت صـورة الرافعي التي نشرت في وحي القلم تتصدر حجرة الإستقبـال في إطـار كبير في بيت الدكتور وفي عيادته وكان أثاث البيت بسيطا ولكنه جميل يـدل على الذوق الفني . وكان البيت على أتمه في النظافة وكل ما في البيت يدل على أنـه بيت طبيب يعرف الصحـة وأديب يغرم بـالجمـال ، وقـد أطلعت الـدكتـور على مـا لم يعلمـه من شخصيـة الجـزائر والمغرب ، وأعلمته بتشبث الجزائر بشخصيته العربية الاسلامية وتمسكه بالتقاليـد الدينية والحضارة العربية في حياته وباعتداده بدينه وعربيته ونظرتـه إليهما نظرة تقديس لا تزيدها مكائد الإستعمار ونوائب الأيـام الا قوة وتمكنـا ، وأخبرتـه بمكانـة أبيـه في الجـزائر ، وبجـلالـه في النفـوس ، وبعظمته وتقدير المثقفين له ، وبغرامنـا في الجزائر بـأدبـه لأن المزاج الديني في الجزائر وشخصية الجزائر العلمية يجعلانه يؤثر الرافعي لدينه وجده في أدبه ، وأخبرته بقراءة أستاذنا الشيخ بيوض إمـام النهضـة في جنـوب الجـزائر لمقـالات الرافعي : «رؤيـا في السماء وزوجـة امـام ، وقصة زواج ، (وفلسفة المهر) دروسا في المسجـد وتـأثر العـامـة تـأثرا لا يوصف بتلك المقالات التي شرحها الأستاذ بأسلوبه البارع وفصـاحتـه النادرة .

كان مصطفى صـادق الرافعي قـوي الشخصيـة جبـارا في كل الميادين سيما في ميدان النقـد الأدبي اذا دافع فكرة تمس الـدين وهـدم رأيـا يسوء إلى العربيـة وكان طـول حيـاتـه عينـا يقظـة على الـدين والعربيـة يحرسها ويرد عنها سموم المبشرين والمستعمرين التي كانـوا ينفثونها بكل الأسـاليب . وكان إلى غيرتـه معتـدا بنفسـه إعتـدادا هو



سبب عبقريته ونبوغه ، ممتلئا بالشعور بنفسـه إمتلاء رسم لـه الآفـاق العالية التي بلغهـا . وقـد مني بمنـافسين في الميـدان الأدبي حـاولوا أن يهـدموه بكل وسـائلهم فثـار للـدفـاع عن النفس فـأبطل بـاطلهم من تصـويره على غير حقيقتـه وإبرازه في صـورة كاذبـة لا تمثلـه ، ورد الباطل من آرائهم التي كانت صدى لثقافتهم الغربيـة التي أوحت إليهم بما ينابذ الـدين ويصـادم التقـاليـد الإسلاميـة الكريمـة . وقـد صـال الرافعي وجال في ميدان النقد تؤججه الغيرة على الـدين وعلى نفسـه فينقض على الفكرة بحجه الدامغة ، وعلى صاحبها فيكسفه في الصدور بما يبدى من قصوره وبما يركبه به من تهكم بارع وسخرية لاذعة .

☆ ☆ ☆

كان أغلب منافسيه ممن تعلموا في أوروبـا . ولعلهم قـد نظروا إلى الرافعي نظرة كالتي نرى بعض نـاشئتنـا الـذين تعلمـوا في الخـارج ينظرون بها إلى المغرب وعلمائه اذا رجعوا إليه فسـاءت الرافعي هـذه النظرة التي خلقهـا فيهم الغرور والجهل بـأمتهم فثـار ثـورة البحر اذا رأى السحاب يرعد عليه ويمطره ليزيد في مائـه وهو بصقـة منـه ... فكتب في النقد كتابه تحت راية القرآن ، وكتابـه «على السفود» وكان السفودكتابـا فـذا في النقـد انتجتـه عـاطفـة الرافعي الجـامحـة وعقلـه العبقري .

وقد حـدثني الـدكتور محمـد عن حـدة أبيـه في النقـد وصرامتـه في الدفاع ، ونفور كثير من منافسيه فلم يقاربوه لإتخـانـه لهم بـالجراح ،

وأخبرني أنهم أرادوا طبع السفود فنصحهم الأستاذ عبد الرحمن الرافعي بإرجاء ذلك لأن من سلكهم الرافعي في سفوده يحاكمونهم الى القضاء ، اننا نجل الذين انتقدهم الرافعي في السفود ونغار عليهم ونراهم من مفاخرنا مع الرافعي ، ولكنني أتمنى أن يعاد طبع السفود لأنه أسلوب في النقد تحتاج إليه الأمة أحيانا كما تحتاج الى الأحجار التي نلقمها أفواها لا تعي الكلام وما أحوجنا نحن في المغرب إلى وسفافد ، سفافيد نسلك فيها الخونة من أعداء الدين والوطن فان بعض البقاع النجسة لا تطهرها إلا النيران ! ان كتاب السفود الذي طبع منذ عشرين سنة يجب على كل أديب قراءته ليتعلم منه أسلوبا كالرماية التي يجب على الانسان أن يحدقها للمكاره اذ ألمت به . وسألت الدكتور محمد عن مكتبة أبيه فقال انهم باعوها لدار الكتب المصرية . ليت دار الكتب أبقت مكتبة الرافعي ركنا فيها يحمل اسمه ويكون ذكرى له .

كما أبقت مكتبة تيمور والشنقيطي فلم تذب فيها . ان آثار الرافعي هي مكتبته ومن حقه على مصر التي رفعها الى الذرى بجهاده وعبقريته أن تحيي ذكره بالإبقاء على مكتبته فنرى إسم الرافعي بجانب إسم تيمور والشنقيطي في فهارسها . ولعل مدير دار الكتب الأستاذ الكبير توفيق الحكيم الذي أشاد الرافعي بأدبه ينصف الرافعي فيترك لنا مكتبته تحمل اسمه مجتمعة في مركز الدار لا موزعة في الفروع . انه اذا فعل أسدى الى الأدب يدا مع اياديه اليه بنتاجه . وترك في دار الكتب مأثرة تحيي ذكره مع جهوده فيها . وفي آخر مجلسي مع الدكتور محمد أسرع إلي نجله مصطفى وكان غاية في



الفراهة والنظافة والجمال فسألته عن سميه فأشار إلى صورة الرافعي المنوطة بالجدار . وكان فارع القامة فظننته في الثانية عشرة فلما سألت الدكتور محمد أخبرني ان عمره سبع سنين فلم أعجب لأن الطبيب الذي يعرف التربية الصحيحة لابد أن تكون سلالته على الكمال ، ليت للوالدين كلهم علم بالتربية لينشئوا لنا الجيل القوي الذي يبلغ بنا الغايات . ثم امتطينا سيارة الدكتور محمد ليطلعني على بعض الأنحاء التي كان الرافعي يغشاها ويريني داره ويزيرني قبره فأخذت بنا السيارة في ضاحية طنطا الحالية بالزهور وفي شارع الجيش وهو من أكبر الشوارع في طنطا وقف الدكتور محمد أمام مقهى «ليمنوس» فأشار إليه فقال هذا هو مقهى الرافعي ، انه النادي الذي يقضي فيه أوقات الفراغ ويجتمع بأصدقائه وتلاميذه وهو من منازل وحيه فأكثر مقالاته في الرسالة تولدت له معانيها في هذا المكان ، ومقهى «ليمنوس» ليوناني آثره الرافعي لقربه من داره ولنظافته وجمال موقعه . انه عال عن الشارع يصعد إليه بدرج ويشرف على ميدان صغير أمامه . وكان مجلس الرافعي منه على شرفة مطلة على الميدان . وقريبا من المقهى يتفرع شارع الحكيم وفي هذا الشارع الدار التي نشأ فيها الرافعي وقضى فيها حياته ، ونقع من الشارع في حارة صغيرة تسمى حارة عبد الرحيم ، والدار في مدخل الحارة على اليمين وهي دار عالية في أربع طبقات بناها عبد الرزاق والد الرافعي ، وكانت وقت بنائها أفخم دار في طنطا ولكن الآن تعد دارا قديمة قد أبلاها الزمان ، وهذه الدار كانت ملكا للرافعي واخوته ولما توفي باعها الورثة فهي الآن محتلة بأناس آخرين غير

أبناء الرافعي ، وكان الرافعي يسكن في الطبقة الثالثة من الدار ، وقد أراني الدكتور محمد شرفة مكتب الرافعي ، وقد وقفت أمام الدار ساعة وأنا أتأمل الدار التي انشأت لنا أعظم عبقرية تفتخر بها العربية والإسلام والشرفة التي كان بصر فيها قلم كان منبع النور والنار ومطلع أدب لا زال شمسا في كبد السماء لا يكسفه الزمن فيرى من النجوم لأنه سلالة القرآن أورثها خلوده في الرفعة لا يتنزل منها ! كان الرافعي يستطيع بجلده وحزمه وذكائه أن يكون من أرباب القصور وأصحاب البذخ والثراء ولكنه آثر المعنى على المادة فتجرد منها للعلم والأدب ينصرهما بكل جهوده فمات رحمه الله عن قصور في الأدب شامخات احتله في عالم الخلود وسطرت إسمه بالنور في سجل المجاهدين الأبرار بدينهم ولغتهم ، انه لم يضر الرافعي شيئا سكناه في بيت قديم لأن الاحساس بالروح وهو منه في سماء الأدب والعلم يسبح في نجومها ، وما يورث السعادة للإنسان هو المثل الأعلى الذي يصله فمحل تحقيقه هو الجنة عنده وكان هذا البيت هو الجنة الفيحاء عند الرافعي فيه تجلى عليه عرائس الشعر والبيان في كل يوم في كتابته وقراءته ، وهو المدرسة التي بنت دينه ونفسه . وعقله بالبيئة الطاهرة المغرمة بالعلم والمعالي ، وهو مصدر سعادته بحنان وحب الأسرة التي كان لها ابنا والأسرة الثانية التي كان لها أبا . انه بيت هو الأفق الصافي الذي يطلع للدنيا شموسها ، وأرى أن الرافعي كان يتمهل في خطواته كل ما دنا من دراه اجلالا لهذه المعاني السامية التي تحتوي عليها هذه الدار العظيمة . وقد اكتفينا بمشاهدة الدار من الخارج فلم نستطع الدخول إنها ملك لأناس آخرين غير أسرة الرافعي ، ليت



الزمان اسعف فبقيت الدار في أسرة الرافعي وبقي مكتب الرافعي فيها على حاله كما بقي مكتب سعد زغلول وداره آثارا تردد تاريخه ، وتشاهد فيها الأجيال معالمه ، ليت مصر(التي رفعها الرافعي في القلوب أكثر من سعد ، وتفانى في مجدها أكثر من سعد ، وترك لنا كنوزا خالدة لا تقدر بقيمة أكثر مما ترك لها سعد)عرفت واجبها لهذا الرجل العظيم فأبقت داره دارا للعلم في طنطا يؤمها الباحثون والسواح للتزود من مكتبته ومشاهدة آثاره ، مات الرافعي ولم يضع لبنة على لبنة ليترك لأبنائه نشبا . ولكنه ترك لهم أدبا ومجدا تليدا أسكنهم قلوب الخاصة الماجدة من العالم الإسلامي ، وملكهم الأفئدة الطاهرة العبقرية من الأمم العربية ، فحسبهم به تراثا لم يتركه ذوو الأطيان لاعقابهم . وكنت وأنا أدخل بيت الدكتور محمد أشعر أنني أدخل في داري ، وكنت أحدثه وأنا أراه زميلا قديما وشخصا هو جزء من نفسي . لماذا ؟ لأن أباه غرسه في أعماقي وفي أعماق كل مثقف في المغرب والمشرق يعرف اللباب في الأدب ويغرم به . وكانت الشمس محرقة تحت شرفة الرافعي التي ذهلت فيها عن نفسي فأشفق الدكتور محمد فاجتذبني من ذراعي فركبنا سيارته فأم بي مرقد الرافعي لأقف على قبره الكريم .

وفي طريقنا الى مقبرة الرافعي التقينا بالأستاذ سعيد الرافعي أحد تلاميذ الرافعي ومريديه الذين لازموه وعرفوا أبناءه وسيرته في حياته الخاصة . والأستاذ سعيد ابن عم الرافعي ، هو الآن مدرس اللغة الفرنسية في مدرسة ثانوية في طنطا فركب معنا السيارة لزيارة قبر الرافعي .

وكانت مقبرة الرافعي كمقابر مصر الخاصة ؛ فناء محوط بأسوار عالية في مدخله سقيفة مدارة بالكراسي العريضة من الخشب أو الاسمنت لجلوس الزوار أو لانتظار المشيعين للجنازة وقت الدفن وكانت مقبرة الرافعي خاصة بأسرة عبد الرزاق والد الرافعي ، وفيها قسم خاص بالغرباء فيه زوجة «خلاف» التي كتب الرافعي فيها مقالته قصة أب المنشورة في وحي القلم . وكانت شجرة كبيرة في وسط المقبرة تظلل قبر الرافعي وتكسو ظاهره بنضارة كالتي يجدها في قبره من نعيم ربه ، وكانت القبور لا ترى متميزة كما هي في مقابرنا بل المقبرة عبارة عن دكان طويل عريض إرتفاعه حوالي متر ونصف على جوانبه أبواب فيلحد في وسط الدكان المجوف للميت لحدا في عمق ميترين ثم يسد ذلك الباب بصفيحة من الإسمنت فلا يرى بعد ذلك الا ظاهر الدكان الذي يشتمل على قبور عديدة . وكان قبر الرافعي على حافة الدكان وقد أشير إليه بزهريتين ، وقد أخبرني الدكتور محمد أنهم سيعيدون بناء المقبرة فيظهرون قبر الرافعي فيكون مستقلا . وقد قرأت الفاتحة على روح الرافعي ودعوت له بالمزيد من جزاء الله على جهاده في سبيل الدين والعربية .

فجلسنا تحت الشجرة ربع ساعة فروى لي الدكتور محمد قصة موت الرافعي وحدثني عن جسمه الرياضي وبنيانه المتين وبصره الحديد حتى أنه لم يعرف النظارات في قراءته إلا في آخر عمره . وقد سألته عن مؤلفاته فقال إنها طبعت كلها إلا في كتابه أسرار الاعجاز فانه لم يتمه وقد قال لنا الأستاذ سعيد العريان إنه لا يستطيع أن يتمه إلا جماعة من تلاميذه يتصفون بجلده في البحث والإستقصاء وفي



طريقنا إلى المدينة روى لي الأستاذ سعيد قصصا للرافعي مع خصومه لاسيما الدكتور زكي مبارك قال : لما نشر الرافعي مقالاته «صعاليك الصحافة» دس الدكتور زكي للرافعي فأوهم طائفة من أدباء مصر ومنهم الأستاذ صالح جودت أن الرافعي يعنيهم فعزموا على مهاجمة الرافعي خمسة أسابيع في صحفهم ومجلاتهم قال الأستاذ سعيد فسمعت بالمؤامرة فأسرعت الى الرافعي فأخبرته فقال : ان مرادي بالمقالات أن ترتفع الصحافة العربية الى مستوى أرفع لتكون مدرسة راقية للشعب وما قصدت شخصا فيها . قال الأستاذ سعيد فأخبرت صالح جودت بقصد الرافعي فسكنت ثائرته وأحبطت دسائس زكي مبارك .

ثم ان الرافعي عزم على مهاجمة زكي مبارك وان يسلكه في السفود فأشفق على نفسه فأسرع إلي لأخمد نار الرافعي فجعل الدكتور يثني على أدب الرافعي وعبقريته لأبلغ الرافعي شهادته لأدبه وعقيدته فيه حتى لا يعده من خصومه . وقد قال : ان مقال الرافعي «رؤيا في السماء» يساوي ألف جنيه ولكن لا يجد في الشرق من يدفع له هذا الثمن . وكان الرافعي لا يتقاضى على كل مقال في الرسالة إلا أربع جنيهات وهي أقصى أجر للمقالة في ذلك الحين .

قال الأستاذ سعيد فذهبت إلى الرافعي ففتلت له في الذروة والغارب وأطلعته على عقيدة زكي مبارك في أدبه وتصريحاته هذه فعفا وصفح وقد لمت الأستاذ سعيد على وساطته . انها أجدت زكي أما الأدب فأضرت به . ولو ترك الفحلين يتناطحان لتركا لنا ثروة أدبية تمرع بها العقول فان تناطح الأدباء الأكفاء تناطح الأمواج العظيمة في البحر المزبد يخلق للدنيا سحابها الممطر . ووصلنا عيادة

الدكتور محمد في شارع كبير في طنطا فنزلنا لنستريح فيها ساعة ريثما يحين موعد القطار الذي أرجع فيه الى القاهرة . وفي العيادة سألت الأستاذ سعيد عن الغانية التي ألهمت الرافعي مقالاته الفذة «الجمال البائس» فقال ..!

☆ ☆ ☆

كان الرافعي قد أعطى نفسه للأدب وتفرغ له وخصص له كل قواه ، فلولا هذا ما بلغ فيه تلك الذروة العالية التي لا يحلم بسفوحها المتأدبون الذين لا يعطون لنتاجهم الأدبي الا جزءا من أوقاتهم وطرفا من أفكارهم ، وقد عرض الرافعي نفسه للحب لا بدافع من غريزة بهيمية بل بدافع من عقله الذي يريد أن يذكر ويتأجج بجذوة الحب لينتج ثماره العبقرية . وكان ككل شاعر عبقري يعلم أن قلبه لا يكون له فيؤججه عاطفة ترهف قواه الا اذا وقده بالحب فعاش في حبيبة تصميه ! وقد أحب الرافعي فانتج لنا في فلسفة الحب والجمال ما لم يتركه لنا أديب في العربية . وقد عرفنا أن «مي زيادة» هي التي ألهمته أوراق الورد ورسائل الأحزان ولكن مقالاته «الجمال البائس» لم تعرف إسم الغانية التي ألهمته معانيها . فسألت الأستاذ سعيد الرافعي فأخبرني أن الراقصة الايطالية «بيونيتشه» هي التي ولدت له تلك المقالات . رآها مرة واحدة من بعيد في مسرح بالأسكندرية فألهمته ما ألهمته فكتب الأجزاء الأولى من الجمال البائس فانقطع تياره الكهربائي فبعث إلي فقال : خذ لنا ثلاث



تذاكر لأنظر «بيونيتشه» نظرة ثانية لأتم مقالاتي فان الوحي قد انقضى ، قال الأستاذ سعيد فبينما أنا في الصف لآخذ التذاكر اذا بالرافعي يجذبني من ذراعي فيخرجني من الصف ويقول : «خلاص لقد أخذت حاجتي من «بيونيتشه» التي قد دخلت من الباب الخلفي للمسرح فلمحها فكفته نظرة واحدة منها قال الأستاذ سعيد : وكنت معه أنا والأستاذ سعيد العريان ، وكنا نمني النفس بحضور الحفلة الراقصة فحرمنا الرافعي فوجدنا لذلك أسفا وحسرة . فرجع بنا إلى المقهى فبسط صحيفته فصار يكتب ويكتب حتى ملأ صفحات عدة بالخواطر التي أثارتها فيه بيونيتشه ثم أقبل علينا وقد أسفر وتهلل بمعاودة الوحي له وظفره بثروته من المعاني فصار يداعبنا حتى غصت صدورنا من شدة الضحك فسلانا من حسرتنا ببراعته في الدعابة وظرفه مع الأصدقاء ، وأخبرني الأستاذ سعيد أنه كان يمشي مع الرافعي في أحد شوارع القاهرة ، فتوقف تحت نافذة دار فأشار إليها قائلا : هنا ولدت أوراق الورد فسألته هل كنت تأتي كثيرا إلى هنا فقال : مرة واحدة فقط» .

كان الرافعي لدينه وقوة ارادته قد استطاع أن يعلى غريزته فأشعت نفسها في مجال الشعر فكانت تلك الثروة الأدبية التي ما كان يترك لنا شيئا منها لو كان ينظر إلى جمال المرأة نظرة مادية كما يفعل التيوس ... ثم قام الدكتور محمد فدخل في حجرة عيادته فخرج منها بصحيفة بخط الرافعي فأهداها إلي فكانت أنفس هدية يتحفني بها . والصحيفة مسودة لأحدى مقالاته في الحب عالج فيها الرافعي معاني جامحة لم تسلس له ، وكان أغلب سطورها مشطوبا لأن

الرافعي كان يتأنق في أدبه وكان لعمق معانيه وبراعة صوره لا تواتيه العبارة التي تسع مكنونه إلا بعد جهد ومشقة . وهكذا الأدب الرفيع كالنحت الدقيق وكل صناعة نفيسة لا تكون الا بالمعالجة الشديدة والمحاولة الطويلة ، والذين ينتظرون أن تطاوعهم روائع الأدب بأقل محاولة وبأهون سعي وهم واعون يخدعون أنفسهم بالأماني الباطلة فان الفن «عرَق ودموع» وهيهات أن يكون المرء فنانا بدونها . فحان موعد رجوعي إلى القاهرة فشيعني الدكتور محمد والأستاذ سعيد الى المحطة وقد أبى لهما كرم نفوسهما أن يغادرانها قبل اقلاع القطار فبقيا مدة طويلة معي في المحطة ، ثم ودعاني في حرارة تنم على كرم النفس والأريحية فأخذ القطار في الطريق الجميل الذي راعني في الصباح ولكنني لم ألق اليه بالا لأني في طنطا أعيش في آثار الرافعي التي شاهدتها .

الرافعي الأديب الجبار العالمي !! كان واسع الأفق حتى في وطنيته فرأى العالم الإسلامي كله وطنه . وقد كتب في محنة فلسطين ولو عاش لكتب في محن المغرب ومآسي الجزائر . لقد وفت عاصمة طرابلس الرافعي فسمت به شارعا من شوارعها الجميلة ، وسيأتي اليوم الذي تسمى بقية أقطار المغرب أجمل شوارها بهذا العبقري العظيم ! رحمك الله يا مصطفى ، لئن تنكر لك منبتك فأنت الشمس تخصب بها البقاع البعيدة لا مشرقها .

☆ ☆ ☆



## وقفة في دار الرافعي وعلى قبره[1]

هذه المقالة السابعة جزء من الفصل الثاني من هذه الحلقات ضاق عنها نطاق البصائر لما نشرت الحلقة الثانية ونسيت أن تنشره في الجزء الثالث وهو يحتوي على حقائق حدثني بها الدكتور محمد عن أبيه وهي أهم ما حدثني به وأريد أن يعرفه تلاميذنا المتأدبون ليعرفوا طريق الأدب الصحيح فيسلكوه . وما أحوجنا في الجزائر الى أدباء عباقرة يطهرون النفوس من أدرانها ببلاغة القرآن التي طهر المصطفى بها نفوس العرب فتآخوا واتحدوا . وما أشد فقرنا إلى جيش من البلغاء يرابطون تحت راية القرآن كالرافعي ليغرسوا معانيه في النفوس ، وينعشوا العربية التي يصر الإستعمار على قتلها في الجزائر . وإليك تتمة المقال الثاني :

قال الدكتور محمد بعد أن أخبرته بإجلال المغرب لأبيه وأكبار الجزائر لأدبه : نحن نعلم أن الرافعي وان أزْوَرَّ عنه كثيرون في مصر لكثرة خصومه ومنافسيه الذين لا يزالون يعملون لإخماله فهو مبجل محترم مغمور بما هو أهل له في العالم الإسلامي . وقد حدثني الدكتور عن جلد أبيه في الدرس وغرامه غراما لا يوصف بالقراءة ، وعن طول نفسه في العمل المضنى لا يكل ولا يمل أخبرني الدكتور محمد أنه كثيرا ما يأمر بالعشاء فيدخل حجرة كتبه فتستهويه فيأخذ في القراءة فنخبره بانتظارنا له للعشاء فيقول امهلوني دقيقة واحدة فقط ولكن الدقيقة تمتد إلى ساعات فنتعشى ونسهر حتى يغلبنا النعاس

(1) بقية من الحلقة الثانية لم تنشرها البصائر فاستدركت هنا .

(1) المصدر : البصائر عدد 347

فنـنام والرافعي في حجرة كتبـه قـد أنستـه دراستـه العشـاء والأسرة والوجود حوله كله . وأخبرني بمعرفته التامـة بمكتبتـه التي تحوي آلاف المجلدات . وكان يقف الى خزائنه فيأخذ ذلك الكتاب وذلك الكتاب فيطلع في دقائق على ما لا يستطيعه غيره في ساعـات وذلـك لمعرفتـه بـالكتب ومواقع المسائـل من صفحـاتهـا ، لا يتعب ولا يفتش ولكن يقصد إلى الصفحة فيجد ما يريد . وبمعرفـة الرافعي بمكتبتـه وبمواقع المسائل من صفحاتها ليس لقوة ذاكرته فحسب بل لاعتنائه بـالـدرس وتمهله في القراءة ، واتقانه لمطالعة الكتاب واستيعابه له كلـه . وهـذه هي الصفة التي اذا تكونت في النفس بلغ صاحبها غايته في الأدب .

وقد كان الرافعي متصفا بإتقان أعمـالـه في الـدرس إلى حـد الغلو فلذلك لازمته هذه العادة فأتقن أدبـه فكان بـه إمـام الأدبـاء في هـذا العصر . ليت شبـابنـا يعرف «أن الفن عرق ودمـوع» بـالجهـاد المستمر وتجرع المرائر بـالحرمـان فيسلـك طريـق الرافعي في الكـد وإعطـاء النفس كلهـا للعلم والأدب فلا يقنع في العمـل فيكتفي بحفر النـل في إستنباط العيون الفوارة التي تعانق النجوم . ان ما يغير النكـد الـذي عليه الجزائر الى سعادة وعز هو مـا يغير النفوس فتتطهر من أنـانيتهـا وأوشـابهـا . ولا يقوى على هـذا التغيير إلا الأقـلام والألسنـة البليغـة الصادقة فيجب أن تعمل مدارسنا في إنشائها في أبنـائهـا فهي للجزائر أكبر سلاح .



ملك جمعية
نادي اسماعيل ابراهيم الطيش
لخدمة الشرات

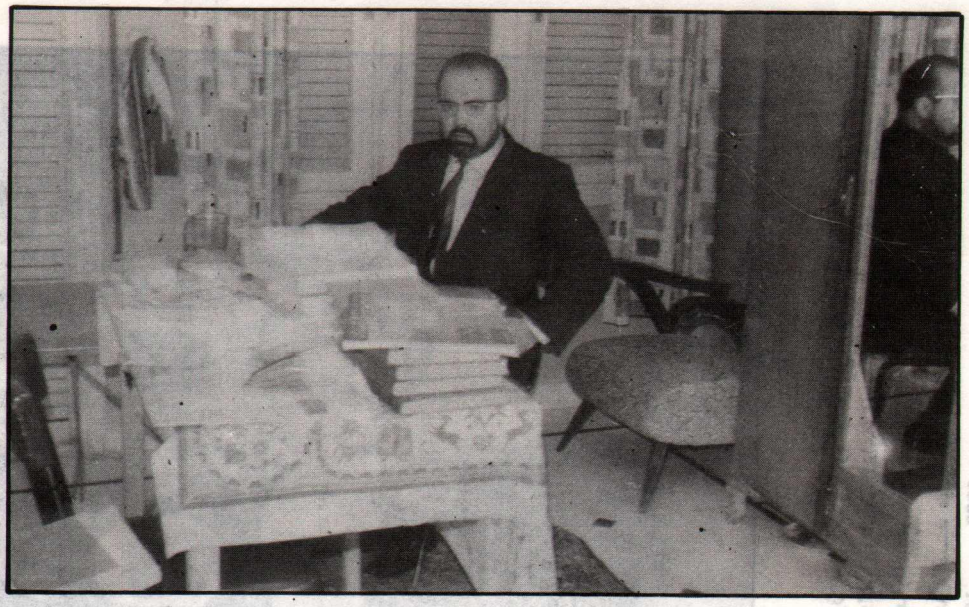
# فهـرســـت


| | |
|---|---|
| المقدمة | 5 |
| الشيخ محمد على دبوز (فى سطور) | 9 |
| الشيخ محمد على دبوز وتاريخ المغرب الكبير | 13 |
| محمد على دبوز والمنهج الاسلامى لكتابة التاريخ | 27 |
| نماذج من كتاباته النقدية والادبية | 39 |
| تاريخ الجزائر العام للشيخ عبد الرحمن الجيلالى | 39 |
| الشهيدة « مأساة ميزاب » | 51 |
| المكيدة | 61 |
| ذكرى الاربعين : عبرات على قبر الشيخ الطرابلسى | 71 |
| حمار الحكيم | 74 |
| حديث الجاحظ : من أسباب ضعفنا فى الادب | 84 |
| وقفة فى دار الرافعى وعلى قبره (1) | 92 |
| وقفة فى دار الرافعى وعلى قبره (2) | 107 |
| صور تذكارية تبرز حيوية ونشاط الشيخ محمد على دبوز رحمه الله | 111 |



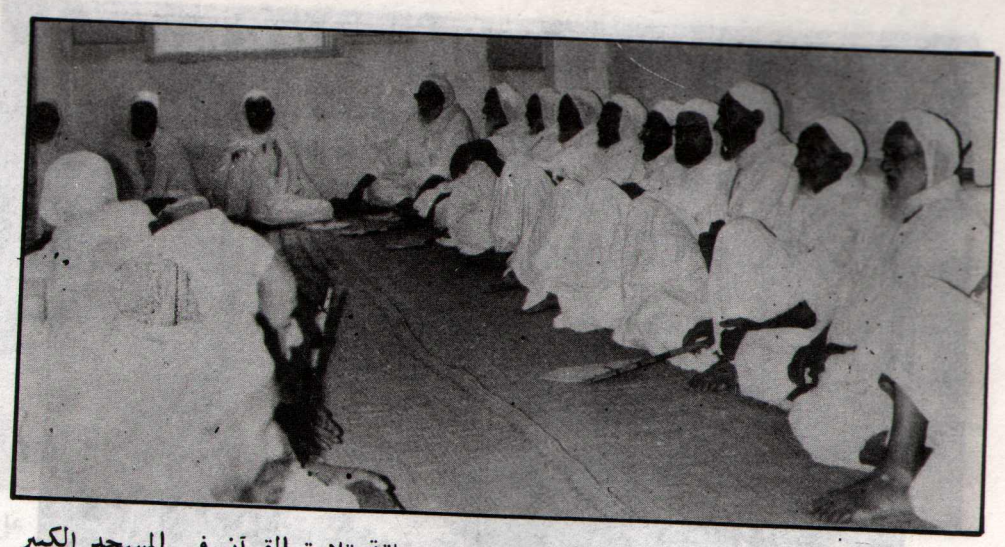
الشيخ محمد على دبوز قبل اتجاهه الى تونس لمواصلة الدراسة الجامعية وهو الواقف والجالسون هم من اليمين والده الحاج على بن عيسى دبوز . الشيخ بيوض ابراهيم ابن عمر شريفى سعيد (الشيخ عدون .

أخذت الصورة فى جنان السيد عيسى بن عمارة خبزى فى القرارة يوم الخميس 13 فيفرى سنة 1941 م 16 محرم 1360 هـ .



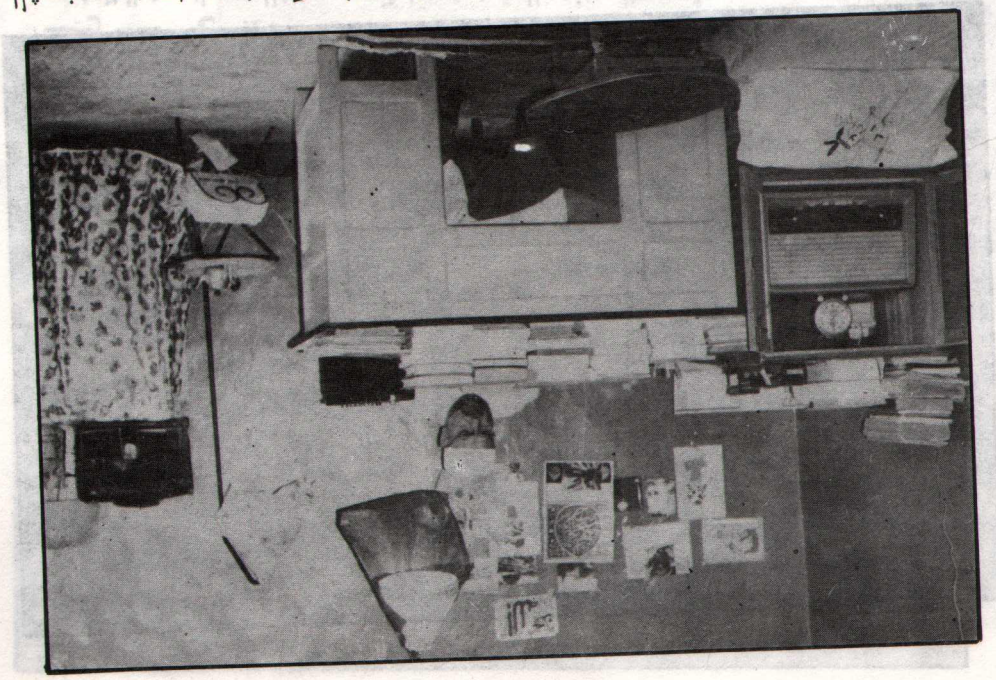
الشيخ محمد علي دبوز ـ رحمه الله ـ في مكتبه في دمشق شارع المزرعة الجديدة
مهتما بتأليف الجزء الثاني من كتابه نهضة الجزائر الحديثة
وقع التصوير في غرة شعبان 1386 هـ آخر أكتوبر 196[illegible] م

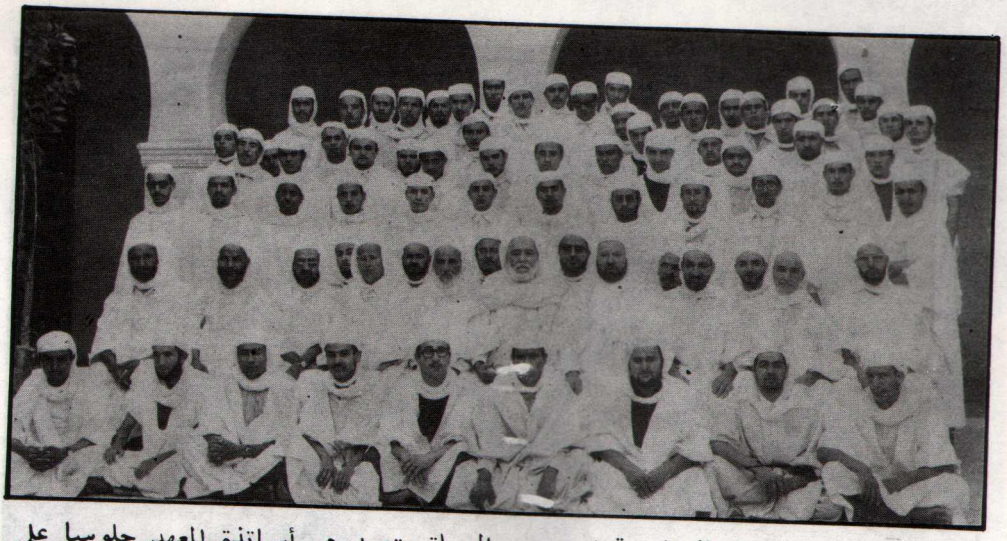




الشيخ محمد على دبوز – رحمه الله – فى صدر حلقة تلاوة القرآن فى المسجد الكبير بالقرارة ، يتصدرها العزابة . وفى الصدر الشيخ بيوض – رحمه الله – رئيس العزابة ويظهر فى يمين الصورة جزء من الصف الاول من القراء . وعددهم فى هذا المجلس نحو 150 من مستظهرى القرآن

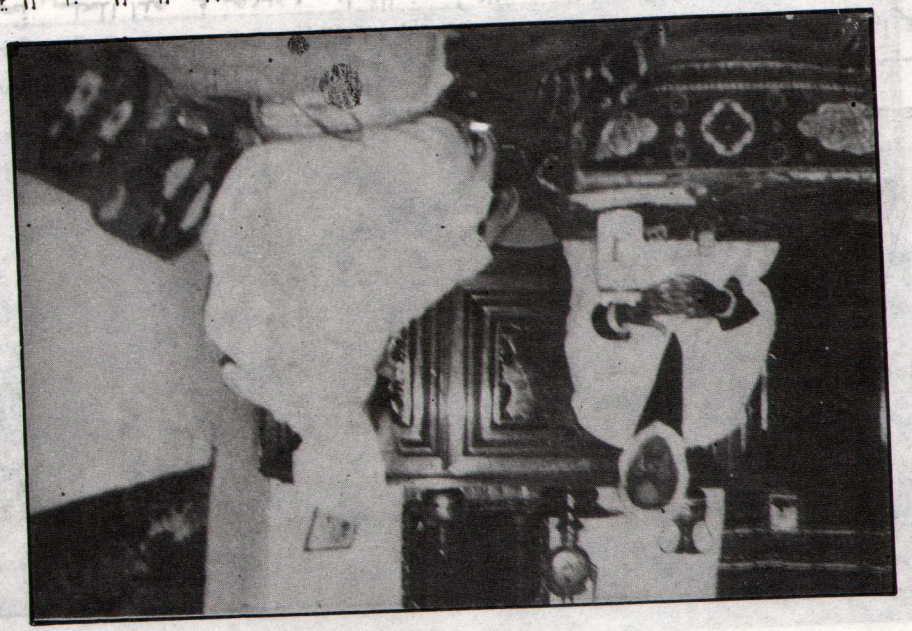
اخذت الصورة بين صلاة الجمعة وصلاة العصر فى 25 رمضان 1397 9 سبتمبر 1977 .





طلبة السنة الخامسة والسادسة فى معهد الحياة يتصدرهم أساتذة المعهد جلوسا على الكراسى والشيخ محمد على دبوز على يسار الامام الشيخ بيوض رحمهما الله .
أخذت الصورة فى يوم 16 ـ 5 ـ 1395 هـ الموافق لـ 28 أفريل 1975 .
أخذت هاته الصورة بمناسبة بلوغ معهد الحياة الخمسين من عمره المبارك .
من تصوير عاشور أحمد .





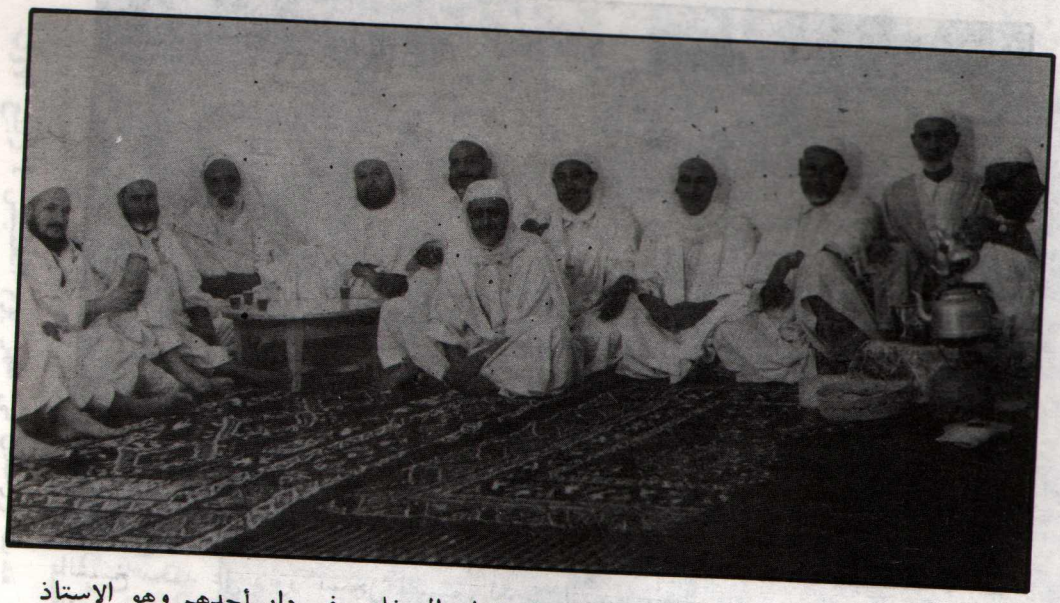
الشيخ محمد على دبوز يسجل تاريخ الشيخ الطيب العقبى – رحمه الله – من السادة ابتداء من اليمين الشيخ عبد المجيد بن حبة امام الجمعة فى سيدى عقبة . والشيخ الهاشمى الامام الاول ، وابن عم الشيخ الطيب العقبى قيم مسجد سيدى عقبة . وقع التصوير فى سيدى عقبة .





الشيخ محمد على دبوز – رحمه الله – يقرأ ما كتب على الشيخ أبى اليقظان – رحمه الله – من تاريخه وبيده القلم لتسجيل الملاحظات .

أخذت الصورة فى دار الشيخ أبى اليقظان فى شهر محرم 1388 . ماى 1968 من تصوير عاشور أحمد .



الشيخ محمد على دبوز مع نخبة من جماعة اخوان الصفاء . فى دار أحدهم وهو الاستاذ الحاج محمد بن ح ابراهيم مرمورى . وهو الثانى على اليمين . ويتصدر الجلسة الشيخ على يحيى أمعمر وهو على يمين الشيخ محمد على دبوز .



الشيخ محمد على دبوز مع صديقه الحميم الفكر الاسلامى الشيخ أبو اليقظان فى مصر



الشيخ محمد على دبوز يسجل الشيخ العربى التبسى وهو الثانى على الشمال على يمينه الشيخ الحفصى أخو الشيخ العربى وعلى يساره الشيخ محمد أشبوكى والشيخ العيد مطروح من كبار تلاميذ الشيخ العربى الحفاظ لتاريخه يحدثون الشيخ محمد على دبوز فى مكتبة الشيخ العربى فى بسمة بتاريخ أنشيخ العربى ويسجله بالآلة الماسكة للصوت وفى أقصى اليمين المرحوم السيد أحمد نزعل ونجله محمد .

أخذت الصورة فى 3 ربيع الاول 1386 هـ ، 23 يونية 1966 .





السيد محمد الصالح نجل الشيخ محمد الميلى ابن امعنصر على اليمين وهو أشبه الناس بوالده فى الخلقة يحدث الشيخ محمد على دبوز بتاريخ والده وتاريخ صهره الشيخ مبارك الميلى . ويصغى باهتمام لاسئلة الشيخ محمد على دبوز . وأمامه المسجلة الماسكة للصوت .

وقع التصوير فى مدينة ورجلان فى ظهر يوم الخميس 1 ربيع الاول 1398 هـ ، 9 فيفرى 1978 م .

الشيخ محمد على دبوز مع تلميذه النجيب الدكتور محمد بن صالح ناصر فى مصر سنة 1962 حيث سعى لادراجه فى كلية الأدب .





الشيخ محمد على دبوز مع الشيخ أحمد توفيق المدنى – رحمه الله – فى مكتبه بسجل منه عدة حركات تاريخية اصلاحية . وقع هذا فى شهر أوت 1976 فى الجزائر العاصمة



الشيخ محمد على دبوز فى حصة من حصصته التدريسية وهو فى مادة التاريخ ، تاريخ المغرب العربى الكبير . ونرى الخريطة مرسومة فى السبورة ، وقد قام بتصويرها بنفسه

طبع بمطابع
« دار الهدى »
قسنطينة ـ الجزائر
هـ : 85 65 69